صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي ٣

الدولة العبيدية في ليبيا

تأليف
علي محمد محمد الصلابي

دار البيارق

علي محمد محمد الصلابي

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.
- تحصل على درجة الإجازة العالية "الليسانس" من كلية الدعوة في أصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز وكان الأول على دفعته عام ١٤١٣/١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٢/١٩٩٣م .
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الاسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن في السودان عام ١٣٩٠هـ - ١٩٩٦م.
- صدرت له عدة كتب:

١- ملامح الوسطية في القرآن الكريم.

٢- وسطية القرآن في العقائد.

٣- وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع .

- أنجز بعض الدراسات التاريخية وهي تعد للطباعة في الوقت الحالي.

الدَّوْلَةُ العُبَيْدِيَّة

في ليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٨/٢/٢٦٩)

رقم التصنيف : ٩٥٦,٠٦٥٢

المؤلف ومن في حكمه : علي محمد الصلاّبي

عنوان الكتاب : صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي ج٣ .

الموضوع الرئيسي : ١ - التاريخ والجغرافيا والتراجم
٢ - التاريخ الإسلامي في شمال إفريقيا

رقم الإيداع : (١٩٩٨/٢/٢٦٩)

بيانات النشر : عمان : دار البيارق

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



الأردن : عمان - ص.ب ٨٦٤ - الرمز ١١٥٩٢
مجمع الفحيص التجاري - هاتف وفاكس ٤٦١٠٩٣٧
لبنان : بيروت - ص.ب ١١٣/٥٩٧٤ - الحمراء هاتف ٠٣/٨٨٢٢٣٧

الإهداء

إلى أبناء الشمال الإفريقي خصوصاً وأبناء الأمة عموماً أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾[1].

﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إن الله كان عليكم رقيباً**﴾[2].

﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾[3].

أما بعد:

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الثالث "صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الافريقي" يتحدث عن الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية منذ نشأتها وحتى سقوطها، ويتعرض للبحث في فرق الشيعة وخطرها على الأمة الإسلامية المجيدة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الاحزاب: الآية ٧٠،٧١.

ويحاول ان يسلط الأضواء على أسباب نجاح الدولة الباطنية في الشمال الإفريقي، ويبين حقيقة الصراع بين الرافضة وأهل السنة، ويذكر أساليب الرافضة المتنوعة في محاربة أهل السنة وموقف أهل السنة من ذلك، ويتطرق إلى المجهودات العظيمة التي قام بها أهالي الشمال الإفريقي للقضاء على الدولة العبيدية ودور العلماء من أهل السنة في التعليم والتربية وحمل السلاح ضد الروافض.

ويسلط الأضواء على تأثير الدولة الصنهاجية في نشر معتقدات أهل السنة، وإزالة جذور الروافض من الشمال الإفريقي كله وخصوصاً في زمن المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم بن المعز، ويسرد الأحداث التي وقعت بين الدولة العبيدية في مصر والدولة الصنهاجية، ويشرح الأسباب التي كانت سبباً في سقوط الدولة الصنهاجية، وينتقل بالقارئ إلى الصراع بين الروافض في مصر وأهل السنة في العراق ليؤكد على معنى مهم وهو أن تاريخ الشمال الإفريقي جزء من تاريخ الأمة يتأثر بالأحداث التي تقع في مصر والحجاز والشام والعراق وفي غيرها سلباً وايجاباً، وأننا لا نستطيع أن نفصل تاريخ الأمة بعضه عن بعض، ويركز على فقه التمكين عند القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين من خلال سيرتهم الجهادية المباركة، وعن جهود العلماء والمحدثين والمربين الذين ساهموا في ظهور جيل النصر والتمكين، ويحاول ان يفسر سنن الله في المجتمعات والدول والشعوب من خلال التفسير التاريخي للأحداث، ويشير إلى أهمية معرفة سنن الله وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية، وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة والحرص على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي يتحقق بها النصر على الأعداء ويتحدث عن أهمية سنة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول، ويعطي

للتربية الربانية أهمية قصوى في تحقيق الاهداف العظمى للأمة سواء على مستوى القادة في اخلاقهم وعلمهم، وجهادهم أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسنة نبيها وقيادتها المخلصة.

وهذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية في هذه الحقبة الزمنية التي وقعت في الشمال الإفريقي والتي تأثرت بالمشرق الإسلامي في حركتها التاريخية، فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه. وهدفي من هذا الكتاب:

١- التأكيد على ان أصول المد الإسلامي في بلادنا أصولٌ سنية لا شيعية ولا خارجية، وإنما ماكان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

٢- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الانفس والمجتمعات.

٣- الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة وتربية أبناء الأمة عليها وكشف معتقدات الروافض التي تخالف القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وإجماع العلماء الراسخين.

٤- التعريف ببعض القادة الربانيين في المغرب، كالمعز بن باديس، وتميم ابن المعز، وفي المشرق كنور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي حتى تستفيد من سيرتهم العطرة أجيال المسلمين التي تنشد النصر والتمكين لدين الله تعالى.

٥- إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيداً عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين

يسعـون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

اما خطة الكتاب فقد قمت بتقسيمه إلى أربعة فصول:

الفصـل الأول الدولـة الشـيعية فـي الشـمال الإفريقـي ويشــتمل علــى خمســة مباحث:

المبحث الأول: الشيعة في اللغة

أولاً: تعريف الشيعة اصطلاحاً

ثانياً: تعريف الرافضة

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم:

رابعاً: بداية التشيع

المبحث الثاني: التعريف بأهم فرق الشيعة

أولاً: النصيرية

عقائدهم

ثانياً: الشيعة الاثني عشرية

- استمرار الاثني عشرية في العصر الحاضر
- الإمام الشيعي في العصر الحاضر ودولته التي اقامها
- تجربة الشيخ موسى جار الله

ثالثاً: الشيعة الإسماعيلية

أ- خطر المذهب الباطني على الأمة.

ب- عقائد الباطنية الفاسدة

المبحث الثالث: داعية الباطنية في الشمال الافريقي

المبحث الرابع: عبيدالله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي

المبحث الخامس: عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي

اسمه وصفته

مكان خروجه

أولاً: تواتر أحاديث المهدي

ب- رجار يهاجم طرابلس

ج- المجاعة في طرابلس

المبحث السادس: أسباب سقوط الدولة الزيرية في الشمال الافريقي

- حكام بني زيري في القيروان والمهدية

الفصل الرابع: أسباب سقوط الدولة العبيدية ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسباب سقوط الدولة العبيدية.

المبحث الثاني: نور الدين محمود

- توحيد بلاد الشام والديار المصرية

- وفاة نور الدين

- المبحث الثالث: صلاح الدين الأيوبي

أ- القاضي الفاضل

- وفاته

ب- وفاة السلطان الناصر صلاح الدين

ج- الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين

د- من أروع المراثي في صلاح الدين

هـ- من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين

ثم نتائج البحث

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة مايملكون من أجل إتمام هذا الكتاب

سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

المؤلف

علي محمد محمد الصلابي

الفصل الأول

الدولة الشيعية في الشمال الإفريقي

المبحث الأول

الشيعة في اللغة

قال الجوهري رحمه الله: (شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، يقال: شايعه كما يقال: والاه من الولي... وتشيع الرجل أي: ادعى دعوى الشيعة، وتشايع القوم صاروا شيعاً. وكلُّ قومٍ أمرُهم واحد يَتْبَع بعضُهم رأي بعض فهم شِيَعٌ وقوله تعالى: ﴿كما فُعل بأشياعهم من قبل﴾[1] أي بأمثالهم من الأمم الماضية[2].

وجاء في المصباح المنير: (والشيعة الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت " الشيعة " نبزاً -أي وصفاً- لجماعة مخصوصة والجمع "شيع" مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع "وشيعت رمضان بست من شوال أتبعته بها"[3].

فالشيعة: من حيث مدلولها اللغوي تعني: القوم والصحب والأتباع والأعوان وقد ورد هذا المعنى في بعض آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾[4].

---

(١) سورة سبأ: الآية ٥٤.

(٢) الصحاح للجواهري، ولسان العرب: (شيع).

(٣) المصباح المنير: (شيع).

(٤) سورة القصص: الآية ١٥.

وقوله تعالى: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾[1]، فلفظ الشيعة في الآيـة الأولـى تعني القوم، وفي الثانية: تشير إلى الأتباع الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما[2].

تعريف الشيعة اصطلاحاً: -

كلمة " شيعة " اتخذت معنى اصطلاحيـاً مستقلاً حيث أطلقت علـى جماعـة اعتقدوا أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي ترجع إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل إنها ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولايجوز لنبـي إغفالهـا ولاتفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه أن يعين الإمام للأمة[3].

فقد قال أبو الحسن الأشعري في صدد ذكره للشيعة: (وإنما قيل لهم الشيعة: لأنهم شايعوا علياً - رضوان الله عليه-، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم)[4].

وقال عبدالرحمن بن خلدون: (اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتبـاع علـيّ وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات اللـه وسـلامه عليـه بنصـوص ينقلونهـا ويؤولونهـا علـى مقتضـى مذهبهـم

---

(١) سورة الصافات: الآية ٨٣.

(٢) المصباح المنير ج١ -٣٢٩.

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص١٩٦-١٩٧.

(٤) مقالات الإسلاميين ج١ / ٦٥.

لايعرفها جهابذة السنة ولانقلة الشـريعة، بـل أكثرهـا موضـوع أو مطعـون فـي طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة)[١].

ثانياً: تعريف الرافضة: -

الرفض لغة: الترك وقد رفضه يرفضه رفضاً

قال الأصمعي: (سموا بذلك لتركهم زيد بن علي رضي الله عنه)[٢].

فالرفض في اللغة معناه الترك والتخلي عن الشيء

وأما في الاصطلاح: هم قوم من الشيعة سموا بذلك لأنهم تركوا تركو زيد ابن علي.

قال الأصمعي: (كانوا بايعوه ثم قـالوا لـه: ابْـرأ مـن الشـيخين نقـاتل معـك، فأبى، وقال: كانا وزِيرَيْ جدِّي فـلا أَبْـرَأُ منهمـا، فرَفَضُـوه، وارْفُضُـوا عنـه فسُمُّوا رافضةً)[٣].

قال عبدالله بن أحمد رحمه الله: قلت لأبـي: (مـن الرافضـي ؟ قـال: الـذي يشتم ويسب أبا بكر وعمر)[٤].

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم: -

عندما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب علـى هشـام بـن عبدالملك كان في جيشه من يشتم أبا بكر وعمر فمنعهـم، فرفضـوه، ولـم يبـق

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١٩٦-١٩٧.

(٢) الصحاح للجواهري ج٢/ ١٠٧٨، لسان العرب ج٧ /١٥٧: (رفض).

(٣) لسان العرب ج٧/ ١٥٧.

(٤) مناقب الإمام احمد ين الجوزي ص١٦٥.

معه إلا مئتا فارس، فقال لهم - أي زيد بن علي - رفضتموني، قالوا: نعم فبقي عليهم هذا الاسم[1]، وكان ذلك في سنة ثنتين وعشرين ومائة. يقول ابن كثير - رحمه الله في صدد بيانه ما حدث في هذه السنة: (فيها كان مقتل زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة أمرهم في أول هذه السنة بالخروج والتأهب له، فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك، فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره - وهو بالحيرة يومئذ - خبر زيد بن علي هذا ومن معه من أهل الكوفة فبعث يوسف بن عمر يتطلبه ويلح في طلبه، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له: ما قولك - يرحمك الله - في أبي بكر وعمر ؟ فقال: غفر الله لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً، قالوا: فلم تطلب إذاً بدم أهل البيت ؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولو فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذاً ؟، قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وإحياء السنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ)[2].

وبهذا يتبين سبب تسميتهم بالرافضة، لرفضهم زيد بن علي الذي منعهم من سب الشيخين رضي الله عنهما وأصبحت كلمة الرافضة تطلق على كل من

---

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٢.

(٢) البداية والنهاية ج٩/ ٣٧٠-٣٧١

غلا في مذهب الشيعة وأجاز الطعن في الصحابة.

رابعاً: بداية نشأة التشيع: -

تذكر كتب التاريخ أن أول من زرع فكرة التشيع في الأمة رجل يهودي يقال له عبدالله بن سبأ أظهر الإسلام للطعن فيه وكان ذلك زمن الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وتنقل ابن سبأ بين المدينة والبصرة والكوفة ومصر والشام والتف حوله المفسدون والحاقدون من المنافقين والجهال بحقيقة الدين.

ونشط ابن سبأ المعروف بابن السوداء في بث فكرتين أساسيتين لأهدافه اليهودية هما: -

الأولى: دعوته إلى اعتقاد رجعة النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول: (عجباً ممن يزعم أن عيسى سيرجع ويكذب بأن محمداً سيرجع وقد قال الله تعالى: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[1].

الثانية: دعوته إلى اعتقاد (أن لكل نبي وصياً وعلي وصي لمحمد، ومحمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن يمنع وصية رسول الله ووثب على حق وصيه وتناول أمر الأمة).

وراسل ابن سبأ أصحابه وأتباعه في الأمصار ليكتبوا ظلماً وزوراً وبهتاناً للطعن في الولاة وينسبوا ذلك لخليفة المسلمين وحثهم على الظهور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يلتف حولهم العوام وزوروا رسائل نسبوها إلى عثمان رضي الله عنه للدس والوقيعة بين الأمة وخليفتها وولاتها.

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٥.

وهيج الأمصار واستجاب أهل البصرة والكوفة ومصر لأهدافه القريبة، وكان من نتائج دسائسه قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه بغير حق ظلماً وعدواناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً أن ابن سبأ أول من أحدث الرفض والغلو المذموم، قال: (وأصل الرفض من المنافقين والزنادقة فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق وأظهر الغلو في علي بدعوى الإمامة والنص عليه وادعى العصمة له) (١).

وذكر أيضاً: (أن ابن سبأ المنافق الزنديق أراد فساد دين الإسلام وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع " بولس " بالنصارى لكن لم يتأت له ما تأتى لبولس لضعف النصارى وعقلهم، فإن المسيح - صلى الله عليه وسلم - رفع ولم يتبعه خلق كثير يعلّمون دينه ويقومون به علماً وعملاً فلما ابتدع بولس ما ابتدع من الغلو في المسيح اتبعه على ذلك طوائف وأحبوا الغلو في المسيح فقام أهل الحق فخالفوهم وأنكروا عليهم فقتلت الملوك بعضهم، وبعضهم اعتزلوا في الصوامع والأديرة وهذه الأمة ولله الحمد لايزال فيها طائفة ظاهرة على الحق فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على الحق، ولكن يضل من يتبعه على ضلاله) (٢).

ولوضوح خبثه وكيده وشدة حقده على الإسلام والمسلمين لم يذكره أحد من أهل العلم والإيمان بخير، وإنما وصفوه بأنه أول من سن لأهل الخذلان النيل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ووصفوه بالخبث والكذب والنفاق والزندقة وبأنه ضال مضل.

---

(١) مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ج٤/ ٤٣٥.

(٢) منهاج السنة ج٣/٢٦١.

ذكر ابن حجر من طريق أبي إسحاق الفزاري أن سويد بن غفلة دخل على علي في إمارته، فقال: إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر ويرون أنك تضمر لهما مثل ذلك فقال علي: مالي ولهذا الخبيث الأسود، ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى عبدالله بن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبداً، ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس، ثم أثنى على الشيخين ثناءً طويلاً وقال في آخره: (ألا ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري)[1].

وتذكر بعض الروايات أن علياً رضي الله عنه همّ بقتله ودعا بالسيف، فكلم فيه، فقال: لايساكنني ببلد أنا فيه، قال: فسيره إلى المدائن[2].

وذكر ابن عساكر بإسناده إلى أبي الجلاسي قال: سمعت علياً يقول لعبدالله السبئي: (ويلك والله ما أفضى إليّ بشيء كتمه أحد من الناس وقد سمعته يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً وإنك لأحدهم)[3].

فعلي رضي الله عنه حكم على ابن سبأ بأنه خبيث وهم بقتله ولما تراجع عن قتله نفاه إلى المدائن، وبين بأنه أحد الدجالين.

وقال الحافظ الذهبي في شأن ابن سبأ: (عبدالله ابن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل أحسب أن علياً حرقه بالنار، وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه علي فنفاه عليّ بعد ما هم به)[4].

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد روايات في ذمه: (وأخبار عبدالله بن

---

(١) انظر تلبيس ابليس لابن الجوزي ص١٠٠-١٠١

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٣٤/٧

(٣) المصدر السابق ج٣٤/٦

(٤) ميزان الاعتدال (٢/٤٢٦).

سبأ شهيرة في التواريخ وليست له رواية ولله الحمد وله أتباع يقال لهم السبئية يعتقدون إلهية علي بن أبي طالب وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته)[1].

قلت: والحرق بالنار منهي عنه شرعاً وكان يكفي قتلهم بالسيف.

وبذلك يتضح للقارئ الكريم أن ابن سبأ اليهودي هو أول من زرع فكرة التشيع وقال بالرجعة والوصية وتلقفها عنه أتباعه وبعض من قلت بضاعتهم من العلم والهدى[2].

والدارس للتاريخ يتضح له أن الأمة في هزاتها العنيفة يكون سببها رجال حاقدون على الإسلام، ويتقنون دور التخفي بين أوساط المسلمين ولا يكلون ولا يملون من بذر ونشر أفكارهم الشيطانية المناهضة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) لسان الميزان: (١٢٣،١٢٢/٣).

(٢) ابن سبأ حقيقة لا خيال (سعدي الهاشمي).

المبحث الثاني

التعريف بأهم فرق الشيعة

إن علماء الفرق صنفوا كتباً كثيرة في فرق الشيعة ورأيت في بحثي هذا أن أذكر أسماءها ولا أتعرض بالتفصيل منها إلا للباطنية لكونها حكمت الشمال الإفريقي، والاثني عشرية لكونها لها دولة حالياً تقوم بنشر ودعم المذهب الشيعي، وللنصيرية لكونها تحكم سوريا منذ بداية السبعينات حتى الآن ومن فرق الشيعة التي ذكرها علماء الفرق: -

* السبئية والغرابية والبياتية والمغيرية والهاشمية والخطابية والعلبائية والكيسانية والزيدية الجارودية، والسليمانية، والصالحية والبترية وبعض هذه الفرق غالت غلواً عظيماً والبعض الآخر أقل غلواً ومن أراد الاستزادة فليراجع مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والملل والنحل للشهرستاني والفرق بين الفرق لأبي الطاهري البغدادي.

أولاً: - النصيرية

وتعتبر هذه الفرقة من غلاة الشيعة وينتسبون إلى محمد بن نصير النميري وقد انبثقت هذه الفرقة من الاثني عشرية " الرافضة " وغالوا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى ألَّهوه.

واشتهرت هذه الفرقة بحرب الإسلام والمسلمين وبمناصرة النصارى الحاقدين والوقوف مع التتار المفسدين كما اشتهرت بالإلحاد في أسماء الله

وآياته وتحريف كلام الله وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن مواضعه وإليك ما قال شيخ الإسلام عن النصيرية في إجابته عن سؤال عنهم: (الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المتَسَمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لايؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه).. إلى أن قال: (ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين... فهؤلاء المعادون لله ورسوله كثروا حينئذ على السواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن احوالهم السيئة كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى وممن كان بها منهم وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنهم كانوا

مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد... ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم... ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارةً يسمون (الملاحدة) وتارةً يسمون (القرامطة) وتارةً يسمون (الباطنية) وتارةً يسمون (الإسماعيلية) وتارةً يسمون (الخرّمية) وتارةً يسمون (المحمرة).

وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات وهو أفضل من جهاد من لايقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم بدأوا بجهاد المرتدين قبل الكفار من أهل الكتاب. . فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك. . ويجب على كل مسلم أن يقوم بذلك على حسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه عن أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ولايحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله ورسوله. . والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب مالا يعلمه إلا الله تعالى) [١].

وهذه الفرقة الخبيثة سمت نفسها في العصر الحاضر بالعلويين وفي فترة الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام وقفت هذه الفرقة مع النصارى الغزاة الحاقدين. وما خرج الاستعمار الفرنسي حتى مكنهم من سوريا وعندما تقلدوا أمور البلاد

---

(١) مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ج٣٥/١٤٩-١٥٩.

انتقموا من أهل السنة انتقاماً تشيب منه الولدان وتضع كل ذات حمل حملها من شدة التعذيب، وزهق النفوس، واغتصاب العفائف الحرائر من نساء أهل السنة والزج بهن وبالرجال في السجون، ولايزال هؤلاء الحاقدون يتقلدون أمر عاصمة بلاد الشام نسأل الله أن يعجل بأخذهم ويمكن لأهل دينه وشريعته.

وهم ينتشرون في جبال اللاذقية، وحماة وحمص في سوريا وفي لواء الاسكندرونة وطرطوس وأدنه أو أظنه (في تركيا حالياً) وفي كردستان وغيرها[1].

ومن عقائدهم الفاسدة: -

١- تأليه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويعتقدون أنه يسكن السحاب، والرعد صوته والبرق ضحكه، وهم لهذا يعظمون السحاب ومنهم من يعتقد أن علياً يسكن في القمر أو الشمس.

٢- تناسخ الأرواح: عقيدة من عقائدهم فالذين لايعبدون علياً يولدون - في زعمهم - من جديد على شكل إبل أو حمير أما المؤمن (وهو من يعبد علياً عندهم) فيتحول عندهم سبع مرات ثم يأخذ مكانه بين النجوم، ومن ينحرف منهم يولد من جديد، حتى يتطهر ويكفر عن سيئاته[2].

وغير ذلك من العقائد الفاسدة.

ولهم أعياد يحتفلون بها يقدمون فيها النبيذ ويرتكبون الفواحش وهي: عيد الغطاس والبربارا وهما عيدان نصرانيان وعيد (النيروز) وهو مجوسي[3].

---

(١) انظر الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفاري ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ص١٣٨.

(٣) المصدر السابق ص١٣٩.

ويعتبرون هذه الديانة الفاسدة سر من الأسرار. ونساؤهم لا دين لهن مطلقا لأنهم يعتبروهن ضعيفات العقول لايستطعن حفظ الأسرار، والرجل لا يطلع على سر دينه إلا بعد أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره، فيلقن العقيدة النصيرية في جلسات خاصة ووسط مؤثرات شتى، وإرهاب فكري وطقوس عجيبة وتجد هذا في كتاب " الباروكة السليمانية " لسليمان الأردني الذي كان نصيرياً ثم تنصر فألف هذا الكتاب ولازال به أهله حتى أماتوه شر ميتة بإحراقه حياً(١).

والذي يجدر الإنتباه له أن الدول النصرانية (أمريكا، بريطانيا، فرنسا إلخ...) وإسرائيل يحرصون على طعن الأمة بهذه الخناجر المسمومة بتقويتها والوقوف معها حتى تصل إلى الحكم لعلمهم من أن هذا المسلك من أفضل الوسائل في إضعاف أمة الإسلام ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (٢).

ثانياً: - الشيعة الاثنا عشرية

ولهم أسماء كثيرة اشتهرت بين الناس منها: الإمامية لأنهم يقولون بوجوب الإمامة بالنص الظاهر والتعيين الصادق.

ويقول صاحب كتاب " أعيان الشيعة " إن هذا الإسم: (لقب ينبذ به من يقدم علياً عليه السلام في الخلافة، وأكثر ما يستعمل للتشفي والانتقام) (٣).

---

(١) انظر الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفاري ص ١٤٠.

(٢) من اراد الزيادة عن النصيرية فليراجع تاريخ المذاهب الإسلامية لابي زهرة العلويون، أو النصيرية للعسكري، فتاوى ابن تيمية ج٣٥.

(٣) أعيان الشيعة لمحسن الأمين ج١/٢٠.

إلا أن الكليني الشيعي في كتابه الكافي وهو عمدة في مذهبهم بل اعظم كتاب عندهم ينزلونه منزلة صحيح البخاري عند أهل السنة ساق ما يدل على أنهم راضون بهذا الاسم واللقب، ويكذبون على الله ويختلقون الإفك ويقولون إن الله خلع عليهم اسم الروافض[1] والقوم اشتهروا بالوقاحة وعدم المبالاة بالافتراء على الله وعلى خلقه.

ومن الأسماء التي اشتهروا بها اسم " الاثني عشرية " لقولهم واعتقادهم بإمامة اثني عشر إماماً وهم على هذا الترتيب: -

١- أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٤٠هـ).

٢- الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٥٠هـ) .

٣- الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٦١هـ) .

٤- علي زين العابدين بن الحسين بن علي (ت ٩٥هـ) .

٥- محمد الباقر بن علي (ت ١١٤هـ) .

٦- جعفر الصادق بن محمد (ت ١٤٨هـ) .

٧- موسى الكاظم بن جعفر (ت ١٨٣هـ) .

٨- علي بن موسى الرضا (ت ٢٠٣هـ) .

٩- أبو جعفر محمد بن علي " الجواد " (ت ٢٢٠هـ) .

١٠- أبو الحسن علي بن محمد " الهادي " (ت ٢٥٤هـ) .

١١- أبو محمد الحسن بن علي " العسكري " (ت ٢٦٠هـ) .

١٢- أبو القاسم محمد بن الحسن " المهدي " (ت ٢٥٦-... هـ) [2].

هؤلاء هم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة الإمامية والشيعة الاثني عشرية

---

(١) فروع الكافي ج٢٨/٨ حديث رقم "٦" من كتاب الروضة.

(٢) انظر عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٦٢-٦٣.

يعتقدون في هؤلاء الأئمة اعتقادات كلها غلو وإطراء وضعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن معتقداتهم في أئمتهم أنهم معصومون " من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكونوا معصومين من السهو والخطأ والنسيان لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم من ذلك حال النبي "[1].

ووصفوا أئمتهم بصفات جاوزوا فيها المنقول والمعقول، فعلى سبيل المثال ما ذكره الكليني في كتابه الكافي المسمى عندهم " أصول الكافي " حيث إنه عقد أبواباً أورد فيها أحاديث من إفكهم وزورهم كلها تضمنت غلوهم في أئمتهم.

وإليك بعض عناوين تلك الأبواب.

(باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه) [2]، (باب أن الأئمة هم أركان الأرض) [3]، (باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عز وجل وأنهم يعرفونها على اختلاف أدلتها) [4]، (باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة) [5]، (باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل) [6]، (باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لايموتون

---

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٥١.

(٢) الأصول من الكافي ج١/١٩٢.

(٣) المصدر السابق ج١/١٩٦.

(٤) المصدر السابق ج١/٢٢٧.

(٥) المصدر السابق ج١/٢٢٨.

(٦) المصدر السابق ج١/٢٥٥.

إلا باختيار منهم) [١]، (باب ان الائمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لايخفى عليهم شيىء) [٢]، (باب أن الله لم يعلم نبيه علماً إلا أمر أن يعلمه أمير المؤمنين وأنه شريكه في العلم) [٣]، (باب أن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وعليه) [٤]، (باب أن الإمام يعرف الإمام الذي يكون بعده) [٥]، (باب في أن الأئمة إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البينة) [٦]، (باب أنه ليس شيء من الحق في أيدي الناس إلا ما خرج من عند الأئمة وأن كل شيء لم يخرج من عندهم فهو باطل) [٧].

وهكذا أخي القارئ – تجد الغلو الممقوت عند علماء الاثني عشرية فإذا راجعت " مرآة العقول " للمجلسي وجدته في مستنقع الغلو الآسن وقع حيث زعم أن عصمة الأئمة فوق عصمة الأنبياء، لأنهم أعلى درجة منهم[٨] وأما إمامهم المعاصر، ومرجعهم الأعلى، وآيتهم العظمى، وهو ما يعرف بزعيم الثورة الايرانية فيحتاج إلى شيء من البيان والإيضاح، لالتباس الأمر على شباب أهل السنة بل حتى على دعاتهم وبعض علمائهم الذين انخدعوا بشعارات الشيعة البراقة لكسب أهل السنة غير مبالين بعهود أعطوها، ومواثيق ألزموا بها أنفسهم، بل غدروا بهم في إيران وقتلوهم وسجنوهم وهدموا بيوتهم فإذا راجعت

---

(١) الأصول من الكافي ج١/٢٥٨.
(٢) المصدر السابق ج١/٢٦٠
(٣) المصدر السابق ج١/٢٦٣
(٤) المصدر السابق ج١/٢٦٤
(٥) المصدر السابق ج١/٢٧٦
(٦) المصدر السابق ج١/٢٩٧
(٧) المصدر السابق ج١/٣٩٩
(٨) انظر مرآة العقول للمجلسي ج٢/٢٨٩.

كتاب "وجاء دور المجوس"[1] رأيت العجب العجاب في أعمالهم الشنيعة وأقوالهم القبيحة حيث إن الكاتب أجاد في كشفهم وفضحهم وبين عوراتهم ووسائلهم في التستر وعلاقتهم ببقية فرق الشيعة في وقوفهم سداً منيعاً ضد أهل السنة.

إن الاثني عشرية لم يحترموا عقلاً ولم يقدسوا شرعاً ولم يلتزموا نقلاً ولم يكرموا علماءهم ولا شيوخهم بعكس أهل السنة الذين أعطوا لهؤلاء الأئمة من الحق والتكريم وإنزالهم منزلتهم التي يستحقونها، ويعجبني في هذا المقام ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السنة فيهم " فمولانا الإمام علي ": من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم، نحبه أشد الحب، ولا ندعي عصمته، ولا عصمة أبي بكر الصديق، وابناءه الحسن والحسين: فسبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدا شباب أهل الجنة، ولو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر، من سادة العلماء العاملين يصلح للإمامة، وكذلك ابنه جعفر الباقر: سيد إمام فقيه يصلح للخلافة.

وكذلك ولده جعفر الصادق: كبير الشأن من أئمة العلم كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى: كبير القدر، جَيِّد العلم، أولى بالخلافة من هارون، وله نظراء في الشرف والفضل.

وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن له علم وبيان، ووقْعٌ في النفوس صيره المأمون ولي عهده لجلالته، فتوفي سنة ثلاث ومئتين.

---

(١) اسم المؤلف: عبدالله محمد الغريب.

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه، لم يبلغ رتبة آبائه في العلم والفقه

وكذلك ولده الملقب بالهادي: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري رحمهم الله تعالى[1] وأما الإمام الثاني عشر فقال فيه: (ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة وأنه صاحب الزمان، وأنه صاحب السرداب بسامراء وأنه حي لايموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، فوددنا ذلك - والله - وهم في انتظاره من أربع مئةٍ وسبعين سنة[2]. ومن أحالك على غائب لم يُنْصِفْكَ، فكيف بمن أحال على مستحيلٍ ؟ والإنصاف عزيز. فنعوذ بالله من الجهل والهوى) [3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٣/١٢٠-١٢١.

(٢) المراد زمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء ج١٣/١٢٠.

استمرار الاثني عشرية في العصر الحاضر

الإمام الشيعي في العصر الحاضر ودولته التي أقامها

تفاعل العالم الإسلامي مع المد الشيعي بعد وصوله إلى مقاليد الحكم في إيران، وإزاحة الشاه المخلوع، واستطاعت وسائل الإعلام الاثنى عشرية أن تخدع كثيراً من المسلمين في طرحهم المعاصر، وساندتها أجهزة الإعلام الغربي. وأجاد الإمام الخميني في تمثيل الدور الماكر فتعاطف كتّاب وصحفيون ودعاة محسوبون على أهل السنة في تمجيد الخميني ووصفه بأنه من المجددين، بل يسير في موكب المصلحين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب وعبدالحميد بن باديس ومحمد بن علي السنوسي وحسن البنا.

وبما أن تلك المقالات والكتابات أصبحت في ذاكرة التاريخ، وتكون سبباً في تضييع الحقائق لأجيال المسلمين رأيت من النصح للأمة وأبنائها أن أبين أن الخميني امتداد لمدرسة الاثنى عشرية الشيعة ذات العقائد الفاسدة والمنحرفة عن هدى الله، وأن ثورته وجمهوريته الإسلامية المزعومة جيء بها لتكون خنجراً مسموماً لكل محاولة جادة لتطبيق الإسلام الصحيح، بل أتيحت للثورة الإيرانية الفرصة أمام العالم لتشويه الإسلام الصافي النقي الذي جاء به محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولكون الدولة الإيرانية امتدت في العالم الإسلامي ناشرة للعقائد الفاسدة في إفريقيا وآسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي والشمال الإفريقي وأوربا واستراليا وأمريكا وتأثر بها كثير من عوام المسلمين الذين لا يملكون فهماً ولا علماً ولا اطلاعاً بحقيقة أمرهم ومرمى أهدافهم. ورأيت من المناسب أن أبين عقائد هذا

القديس المزعوم (الخميني ومن جاء بعده) ، حتى نحذر الأجيال من هذه المدرسة الشيطانية التي نخرت بنيان الأمة ولاتزال تنخر بدون كلل ولا ملل.

ومن عقائد الإمام الخميني الفاسدة ما ذكره في كتابه الحكومة الإسلامية: (وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل وقد ورد عنهم "ع": أن لنا مع الله حالات لايسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل) [1].

فهذا اعتراف واضح في كونه يفضل أئمة الاثني عشرية على الأنبياء والرسل وهذا مذهب غلاة الروافض في حكم كبار أئمة السنة.

يقول الإمام عبدالقاهر البغدادي (ت ٤٢٩) : (وزعمت الغلاة من الروافض أن الأئمة أفضل من الأنبياء ونعلم أن هذا باطل) [2].

ويقول القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) (وكذلك نقطع بتكفير غلاة الروافض في قولهم أن الأئمة أفضل من الأنبياء) [3].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : (والرافضة تجعل الأئمة الاثني عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وغلاتهم يقولون إنهم أفضل من الأنبياء) [4].

ويقول محمد بن عبدالوهاب: (ومن اعتقد في غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساوياً لهم فقد كفر وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء) [5].

---

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ص٥٢.

(٢) اصول الدين ص٢٩٨.

(٣) الشفاء ج٢/٢٩٠.

(٤) منهاج السنة ج١/١٧٧.

(٥) الرد على الرافضة ص٢٩.

إن الخميني مرجعه في المعتقد والتصور الشيعي، شيوخه الذين سبقوه ووضعوا هذا المنهج المنحرف فهو يعظم ويقدس كتاب الكافي للكليني والاحتجاج للطبرسي وغيرها ويترحم في كتبه على المجوسي حسين النوري الطبرسي صاحب كتاب "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب "وتجده يوثق كتاباً حوى "دعاء علي على صنمي قريش" - وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - وفيه وصف الشيخين اللذين حرفا كتابك "[1] وله تفسير باطني في بعض الآيات مثلاً في قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) [2] فقد أمر الله الرسول - صلى الله عليه وسلم - برد الأمانة - أي الإمامة إلى أهلها وهو أمير المؤمنين وعليه هو أن يردها إلى من يليه وهكذا...) [3].

واما اعتقاده في الصحابة: فإن معتقد الاثني عشرية لا ولاية إلا بالبراءة من أعدائهم وهم أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فالخميني يرى مشروعية التبرؤ من هؤلاء الأخيار والتولي للاثني عشر في الصلاة، فيذكر أن المصلي يشرع له أن يقول في سجوده: (الإسلام ديني ومحمد نبيي وعلي والحسن والحسين - تعدهم إلى آخرهم - أئمتي بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ) [4].

ويطعن في الصحابة لمخالفتهم النص المزعوم على إمامة علي يقول: (وفي

---

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ج٢/٢٣٧.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨.

(٣) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ج٢/٢٣٧. واستفدت من هذا الكتاب في هذا الفصل.

(٤) الخميني "تحرير الوسيلة" ج١/١٦٩.

غدير خم في حجة الوداع عينه - يعني علياً - النبيُّ صلى الله عليه وسلم حاكماً من بعده ومن حينها بدأ الخلاف يدب إلى نفوس القوم) [1].

وكتابه الحكومة الإسلامية وغيرها من كتبه مليئة بالانحراف عن الصراط المستقيم فالخميني لا يختلف في اعتقاده عن الرافضة إن لم يكن أشد غلواً وشططاً، ونشط الخميني قبل وفاته محاولاً بسط سلطان الشيعة على شعبه بالقوة، وقامت دولته بتصدير الثورة كما يقولون، تمدت الشيعة على المراوغة والكذب والتضليل، وهؤلاء الجدد لا يختلفون عن شيعة الأمس في المراوغة والكيد وفي الغلو أيضاً.

ويعتمدون على مبدأ التقية في جلب الناس حولهم، وإليك ما قاله الخميني لأتباعه في أحد خطاباته: (لاتبعدوا الناس عنكم الواحد تلو الآخر، لا تكيلوا التهم لهم بالوهابية تارة وبالكفر تارة أخرى فمن يبقى حولكم إذا عمدتم إلى ممارسة هذا الأسلوب) [2].

ولهذا أمر الخميني الحجاج الإيرانيين بأن يصلوا مع أهل السنة تقية منهم وخداعاً للناس، كما كان يفعل قادة الشيعة حينما كانوا يصلون خلف أهل السنة أحياناً ثم يعيدون صلاتهم بعد ذلك، كما صرح بهذا أحد علماء الشيعة المعاصرين. ولقد بلغ الحقد الشيعي على المسلمين وخصوصاً أهل السنة في عصرنا الحاضر إلى حد الاستهتار بدماء المسلمين وأعراضهم وتهديد أمنهم في بيوتهم. ولعل ما فعلوه في مكة في حج ١٤٠٧هـ أقوى شاهد على حقدهم ونظرتهم للمخالفين لهم، حينما تظاهر في حرم الله بمكة ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً منهم، وهجموا يريدون الكعبة، وتجمعوا في مظاهرات

---

(١) الحكومة الإسلامية ص١٣١.

(٢) فرق معاصرة للعواجي ج١/٢٦٢.

غوغائية، وكانوا يهدفون إلى تحقيق مخطط رهيب رافعين شعاراتهم وصور زعيمهم الخميني، وتقدموا رجالاً ونساء يريدون الحرم لولا أن الله تعالى بفضله ومَنّه أفشل مخططهم وحيل بينهم وبين دخول الحرم واشتبكوا مع المسلمين والجنود وبقية الحجاج في مذبحة عظيمة. وأوعزوا إلى اتباعهم وعملائهم في حج عام ١٤٠٩هـ بعمل متفجرات حول الحرم المكي الشريف في يوم ٧ ذي الحجة وراح ضحيتها حجاج أبرياء جاؤوا لأداء فريضة الحج[١].

وأما عن تعذيبهم لأهل السنة في ايران فذكر عبدالله محمد الغريب في كتابه أهل السنة في إيران أنواعاً وأشكالاً وأهوالاً من التعذيب والتنكيل والقتل والاغتصاب وإليك بعض أساليب الاضطهاد والتعذيب والتقتيل التي اتخذها أولئك الأشرار تجاه أهل السنة في إيران.

١- ربط الأرجل بالحبال وضربها بالأسلاك.

٢- ربط الأيدي من وراء ووضع المسجون في زاوية من السجن وصب الماء أو النفط تحته، فعلوا هذا مع عدد من المسلمين.

٣- ربط المسجون وضربه في المواضع المختلفة من جسده من عشر إلى مائة وخمسين ضربة، فإن مات فذلك وإلا استمروا على هذه الحالة مدة خمسة عشر يوماً.

٤- يضعون المسجون في الاصطبل ويتركونه إلى أن يموت.

٥- ومن أنواع التعذيب سلخ جلد الرأس وثقبها وثقب العين بالمثقب وإحراق الأسير حياً وتقطيع الأعضاء وقلع الأظفار[٢].

وهذا قليل من كثير إنهم يبغضون الصحابة ويشككون في القرآن ويطعنون

---

(١) فرق معاصرة ج١/٢٦٣.

(٢) أهل السنة في إيران ص٥٤.

في السنة فماذا ننتظر منهم ؟!!

هل يمكن التقريب بين أهل السنة والشيعة ؟: -

إن كل محاولات التقريب بين السنة والشيعة باءت بالفشل لأن الخلاف بيننا وبينهم في الأصول وليس في الفروع.

ولن يجتمع السنة والشيعة إلا اذا تخلى أحد الطرفين عن معتقده.

فإن علماء الشيعة يرون التقريب مع أهل السنة عندما يشتم أهل السنة الصحابة ويعتقدون معتقداتهم الباطلة. وهذا ما خرج به الشيخ الدكتور مصطفى السباعي من تجربته في هذا الموضوع مع أحد شيوخ الشيعة واسمه عبدالحسين شرف الدين الموسوي حيث إن الدكتور السباعي كان متحمساً لفكرة التقريب واتصل بسياسيين وأدباء وتجار، وأعطوه عهوداً وكلاماً معسولاً وعلى رأسهم الشيخ الشيعي عبدالحسين الذي كان متحمساً ومؤمناً بها، وإذا بالشيخ الموسوي يخرج كتاباً في أبي هريرة رضي الله عنه ملئ بالسباب والشتائم بل انتهى فيه إلى القول (بأن أبا هريرة رضي الله عنه كان منافقاً كافراً وأن الرسول قد أخبر عنه بأنه من أهل النار) [١].

يقول السباعي: (لقد عجبت من موقف عبدالحسين في كلامه وفي كتابه معاً، ذلك الموقف الذي لايدل على رغبة صادقة في التقارب ونسيان الماضي)[٢].

وإن أهداف الشيعة من مسألة التقريب: أن يُفتح لهم مجال لنشر عقائدهم في ديار السنة، وأن يستمروا في طعن الصحابة الكرام، وأن يسكت أهل السنة عن بيان الحق وإن سمع الروافض صوت الحق يعلو ماجوا وهاجوا

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع للسباعي ص٩.

(٢) المصدر السابق ص١٠.

قائلين إن الوحدة الإسلامية في خطر.

تجربة الشيخ موسى جار الله

إن موسى جار الله من تركستان قازاني روسي، وصل إلى منصب شيخ مشايخ روسيا، كان في نهاية العهد القيصري، وبداية الحكم السوفيتي الملحد صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في أمور مسلمي روسيا الذين كانوا يزيدون عن الثلاثين مليون نسمة، ثم هَبَّ عليه إعصار الشيوعية فأصبح بعيداً عن دياره وأهله له تآليف ورسائل وكتب، تنقل بين الهند والحجاز ومصر والعراق وإيران قال عن نفسه: (كان بوسعي ان أغدو كاتب روسيا الأول وأحد زعماء الطليعة فيها لو أنني تخليت عن إيماني ولكنني أثرت أن أشتري الآخرة بالدنيا..)[١].

وهذا العالم الجليل ملم بلغات متعددة منها الفارسية، والتركية والتترية، والروسية وتضلع في اللغة العربية وتعلم أصولها وصرفها ونحوها وبيانها وقريضها فلا تكاد تذكر أمامه مادة من مواد اللغة إلا أجابك على الفور عما إذا كانت وردت في القرآن أم لا وكم مرة وردت وفي أي سورة لأنه مستظهر أتم الاستظهار) [٢].

فحاول هذا العالم الجليل أن يجمع شمل الأمة وأن يوحد أهل السنة والشيعة وبذل جهوداً في هذا الجانب عظيمة فبدأ بدراسة كتب الشيعة وطالعها باهتمام كما يذكر أنه طالع " أصول الكافي وفروعه " و " من لايحضره الفقيه " وكتاب " الوافي " و " مرآة العقول " و " بحار الأنوار " و " غاية المرام " وكتباً كثيرة

---

(١) مسألة التقريب بين السنة والشيعة ج٢/٢٠١.

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ج٤/٢٦٦.

غير هذه الكتب[1].

ثم زار ديار الشيعة، وعاش فيها أكثر من سبعة أشهر يزور معابدها ومشاهدها ومدارسها، ويحضر محافلها وحفلاتها في العزاء والمآتم، ويحضر حلقات الدروس في البيوت والمساجد وصحونها والمدارس وحجراتها، وأقام بالنجف أيام المحرم ورأى كل ما تأتي به الشيعة أيام العزاء ويوم عاشوراء).

وخرج هذا العالم الجليل بنتيجة علمية عملية وهي أن كتب الشيعة قد أجمعت على أمور لا تتحملها الأمة. واتفقت على أشياء كثيرة لايرتضيها الأئمة، ولا تقتضيها مصلحة الإسلام وتناقض أكثر مصالح الأمة ثم هي جازفت في مسائل كثيرة منكرة مستبعدة ما كان ينبغي وجودها في كتب الشيعة ولايظن بالأئمة اعتقادها) [2]. ولايتحملها العقل والأدب ودعوى الائتلاف وليست إلا كيراً ينفخ في ضرام العداء. وكلمة التوحيد توجب اليوم على مجتهدي الشيعة نزع تلك العقائد من الكتب لتجتث جذورها من القلوب. . وإلا فإن الكلمات هراء وأثر المؤتمرات عداء[3].

فرأى الشيخ ببصيرته النافذة وعلمه الغزير أن نقد عقائد الشيعة هو أول مرحلة من تأليف قلوب الأمة لا تأليف بدونها[4].

وقد امتلأ الشيخ حسرة وألماً مما رآه من منكرات في كتب الشيعة وواقعها

---

(١) مسألة التقريب بين السنة والشيعة ج٢/٢٠١.

(٢) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص٢٠.

(٣) مسألة التقريب ج٢/٢٠٣.

(٤) الوشيعة ص١٧.

وكان أول مساعيه في التقريب لقاؤه مع شيخ الشيعة محسن الأمين في طهران وجرى بينهما بعض الحديث ثم قدم له الشيخ موسى ورقة صغيرة كتب فيها مايلي:

١- أرى المساجد في بلاد الشيعة متروكة مهملة وصلاة الجماعة فيها غير قائمة، والأوقات غير مرعية، والجمعة متروكة تماماً وأرى المشاهد والقبور عندكم معبودة ما أسباب كل هذا؟

٢- لم أر فيكم لا بين الأولاد ولابين الطلبة ولابين العلماء من يحفظ القرآن ولا من يقيم تلاوته، ولا من يجيد قراءته، أرى القرآن عندكم مهجوراً ما سبب سقوط البلاد إلى هذا الدرك الأسفل من الهجر والإهمال، أليس عليكم أن تهتموا بإقامة القرآن الكريم في مكاتبكم ومدارسكم ومساجدكم ؟

٣- أرى ابتذال النساء وحرمات الإسلام في شوارع مدنكم بلغ حداً لايمكن أن يراه الإنسان في غير بلادكم وكان تاريخ تلك الرسالة ١٩٣٤/٨/٢٦م ثم أرسل رسالة إلى علماء النجف وأرسل الرسالة نفسها إلى علماء الكاظمية.

فكتب فيها: (أقدم هذه المسائل لأساتذة النجف الأشراف بيد الاحترام، بأمل الاستفادة، بقلب سليم صادق، كله رغبة في تأليف قلوب عالمي الإسلام[1] الشيعة الإمامية الطائفية المحقة - يعني على زعمهم -[2] وعامة أهل السنة والجماعة راجياً إجابة الأساتذة السادة جميعاً أو فرادى، كل ببيانه البليغ، بتوقيع يده مؤكداً بخاتمه ومهره). ثم أورد في الرسالة ما في كتب الشيعة من أمور منكرة مشيراً إلى أرقام الصفحات في كل ما يذكره، فذكر عدة قضايا خطيرة في كتب الشيعة تحول بين الأمة والائتلاف مثل: -

---

(١) انظر: مسألة التقريب (٢٠٣/٢)

(٢) انظر: الوشيعة ص ١٧.

١- تكفير الصحابة.

٢- اللعنات على العصر الأول.

٣- تحريف القرآن الكريم.

٤- حكومات الدول الإسلامية وقضاتها وكل علمائها طواغيت في كتب الشيعة.

٥- كل الفرق الإسلامية كافرة ملعونة خالدة في النار إلا الشيعة.

٦- الجهاد في كتب الشيعة مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل حرمة الميتة وحرمة الخنزير، ولاشهيد إلا الشيعة، والشيعي شهيد ولو مات على فراشه، والذين يقاتلون في سبيل الله من غير الشيعة فالويل يتعجلون.

ثم قال الشيخ بعد ما نقل شواهد هذه المسائل من كتب الشيعة المعتمدة مخاطباً شيوخ الشيعة: هذه ست من المسائل، عقيدة الشيعة فيها يقين. فهل يبقى في توحيد كلمة المسلمين في عالم الإسلام أمل وهذه عقيدة الشيعة ؟

وهل يبقى بعد هذه المسألة، بعد هذه العقيدة، لكلمة التوحيد في قلوب أهليها من أثر وهل يمكن أن يكون للأمم الإسلامية، ولهم هذه العقيدة في سبيل غلبة الإسلام في مستقبل الأيام من سعي ؟

وذكر غير ذلك من المسائل، في انحراف الشيعة ثم قال: (فتفضلوا أيها الأساتذة السادة بالإفادة حتى يتوحد الإسلام وتجتمع كلمة المسلمين حول كتاب الله المبين) فانتظر الشيخ سنة وزيادة ولم يسمع جواباً من أحد إلا من كبير مجتهدي الشيعة بالبصرة، وما كان إلا طعناً في العصر الأول، وكان طعنه أشد من كتب الشيعة، ثم كتب الشيخ موسى جار الله كتابه القيم وسماه (الوشيعة في نقد عقائد الشيعة) ويقول: إنني أدافع بذلك عن شرف الأمة وحرمة الدين،

وأقضي به حقوق العصر الأول عليّ وعلى كل الأمة[1].

وتوفي هذا الشيخ الجليل بمصر ١٣٦٩هـ فعليه من الله الرحمة والرضوان وجمعنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وتعمدت هذا الإطناب لخطورة الدعوة الشيعية في العصر الحديث حيث إنها تحالفت مع النصيرية في سوريا، ومع حزب أمل الشيعي في لبنان، وتحالفت سراً مع اليهود والنصارى للقضاء على هذه الأمة العظيمة، كما أني طالعت اهتمامهم البالغ بالشمال الإفريقي وغربه وحرصهم على إيصال نفوذهم إليه والعمل على إرجاع ركامهم القديم.

ونجحوا في المغرب، وجندوا شباباً في الجزائر، وأثروا في تونس، وتحالفوا مع ليبيا في أهدافهم الاستراتيجية في حرب العراق.

بل تأكد وجود مجموعات لايستهان بها من أبناء الشمال الإفريقي في إيران للتتلمذ على شيوخهم والرجوع بأفكارهم المسمومة إلى بلاد الفاتحين العظام مراعين في ذلك السرية والتدرج ودقة التنظيم.

واستغلوا الأحداث الدامية في الجزائر بين الحكومة وإخواننا المسلمين، فأظهر الإعلام الإيراني عطفه وتأييده للحركة الإسلامية في الجزائر، فتأثر كثير من إخواننا بهذا الإعلام المزيف الماكر الخادع.

ومن أراد من أبناء الصحوة أن يوسع مداركه وثقافته في هذا الباب فليراجع ما كتبه الشيخ سعيد حوى – رحمه الله – (الخمينية شذوذ في العقائد والمواقف) وما كتبه أحمد عبدالعزيز الحمدان (ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية) .

﴿سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾

---

(١) انظر الوشيعة ص٣٩.

من أفضل ما قرأت في هذا مسألة التقريب رسالة جامعية اسمها مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة.

ثالثاً: - الشيعة الإسماعيلية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين:
فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم وهؤلاء هم الشيعة الاثني عشرية.

وفرقة: نفت عنه الإمامة، وقالت: إن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية.

قال عبدالقاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: "وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل"(١).

وقال الشهرستاني: "الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر.

قالوا: ولم يتزوج الصادق رضي الله عنه على أمه -أم إسماعيل- بواحدة من النساء ولاتسرى بجارية كسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها.."(٢)، فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة، وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب "الإسماعيلية" منها الباطنية! وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ويطلق عليهم القرامطة والمزدكية وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية والملحدة وهم لايحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم"(٣).

---

(١) الفرق بين الفرق ص٦٢.

(٢) الملل والنحل (١٩١/١).

(٣) المصدر السابق (١٩٢/١).

أ- خطر المذهب الباطني على الأمة

اعلم أخي الكريم أن المذهب الباطني من الأسباب التي أضعفت الأمة وأنهكت قواها لقد أدخل أهله عقائد فاسدة مبنية على الفلسفة القديمة، والأصول الإلحادية، فخدعوا ضعاف العقول، والذين لاحظ لهم من المنهج الرباني القويم، وتحالفوا مع النصارى والتتار ضد الإسلام، والمسلمين. وعندما قوت شوكتهم وأقاموا دولة البحرين فعلوا ما تقشعر منه الجلود، وتشيب منه الرؤوس من قتل وسفك ونهب واغتصاب.

بل تجرؤوا على حجيج بيت الله الحرام ففعل أبو طاهر الجنابي بالحجيج أفاعيل قبيحة فدفن منهم في بئر زمزم الكثير، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام.

وعندما أقاموا دولتهم في الشمال الإفريقي أظهروا عقائدهم الفاسدة وقتلوا العلماء وأذلوا أهل السنة وهذا ما سوف تعرفه لأنه من صميم البحث.

إن العلامة البغدادي أوجز عداوة الفرق الباطنية للإسلام والمسلمين فقال: (اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال من وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لاتزيد مدتها عن أربعين يوماً وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر) [(١)].

وذكر ابن كثير أعمالهم التي قادها أبو طاهر الجنابي الباطني حين وصل مكة فقال: (فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبوطاهر لعنه الله على باب الكعبة والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل في

---

(١) الفرق بين الفرق ص٣٨٢.

الناس في المسجد الحرام، في الشهر الحرام، في يوم التروية الذي هو من أشرف الأيام وهو يقول:

أنـــا الله وبالله أنا　　　　أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة، فلايجدي ذلك عنهم شيئاً بل يقتلون وهم كذلك ويطوفون فيقتلون وهم في الطواف. . إلى ان قال (فلما قضى القرمطي لعنه الله أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام) وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها وشققها بين أصحابه...)[1]، وقد حدد بعض العلماء عدد من قتل بثلاثة عشر ألف نسمة وقيل: زهاء ثلاثين ألفاً[2] وكان ذلك سنة ٣١٧هـ.

وأما متى ظهر مذهب الباطنية فاختلف العلماء في ذلك فبعضهم قال سنة ٢٠٥هـ، والبعض الآخر يرأى سنة ٢٥٠هـ ونتيجة السرية المفروضة على أتباع هذا المذهب يتعذر التحديد الدقيق لزمن ظهورهم وإن كانت أقوال العلماء تترجح ما بين سنة ٢٠٠هـ أي بعد انتشار الإسلام وإعزاز أهله، وانطفاء نار المجوسية واندحار اليهودية، واندثار الأصنام الوثنية، وانهزام الأمة الصليبية، فأكل الحسد قلوب الخارجين عن الإسلام من هذه الأمم المهزومة، وبدأوا يخططون في الخفاء بطريقة ينفّسون فيها عن أحقادهم للطعن في الإسلام وأهله ورفع راية الشيطان وحزبه فاتخذوا لهذا الهدف الدنيء عدة أقنعة تستروا بها لتحقيق ما يهدفون إليه منها:

١- اعتمادهم على تأويل النصوص تأويلات تنافي مايقرره الإسلام ويأمر به.

---

(١) البداية والنهاية ج١١/١٦٠.

(٢) كشف أسرار الباطنية ص٣٩، سير أعلام النبلاء ١٥/٣٢١.

٢- إظهار مذهب التشيع لعلمهم بأن مذهب التشيع يحتمل كلامهم، إذ لم يجدوا مدخلاً إلى الإسلام إلا من جهة إظهار التشيع والانتساب إلى المذهب الشيعي وقد تم تأسيس هذا المذهب فيما يذكره الغزالي كما يلي " تم في اجتماع لقوم من أولاد المجوس والمزدكية من الثنوية الملحدين، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين - زاد الديلمي - وبقايا الخرمية واليهود... جمعهم نادوا شنو[1] في حيلة يدفعون بها الإسلام " وقالوا إن محمداً غلب علينا وأبطل ديننا، واتفق له من الأعوان ما لانقدر على مقابلتهم، ولا مطمع لنا في نزع مافي أيدي المسلمين من المملكة بالسيف والحرب، لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم، وكذلك لا مطمع لنا فيهم من قبيل المناظرة لما فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلمين والمحققين، فلم يبق إلا اللجوء إلى الحيل والدسائس ثم اتفقوا على وضع حيل وخطط مدروسة يسيرون عليها لتحقيق أهدافهم.

ومن وسائلهم في تحقيق الأهداف الدخول على المسلمين عن طريق التشيع، وعلى مذهب الرافضة، وإن كان هؤلاء الباطنيون يعتبرون الروافض أيضاً على ضلال، إلا أنهم رأوهم - على حدّ ماذكر الغزالي - أقلّ الناس عقولاً، وأسخفهم رأياً، وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات[2]، وأكثر الناس قبولاً لما يُلقى عليهم من الروايات الواهية الكاذبة، فتستروا بالانتساب إليهم ظاهراً للوصول إلى إضعاف الناس، فكان ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض " كما ذكر الغزالي[3] أو كما قال بعض العلماء: إن الإمامية دهليز الباطنية.. وهذا هو التفسير المعقول لما

---

(١) انظر فضائح الباطنية ص١٨-٢٠، بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص١٩.

(٢) فضائح الباطنية ص١٩.

(٣) المصدر السابق ص٣٧.

نلاحظ من التقارب الشديد بين الباطنية والرافضة[1].

وقال ابن كثير في حوادث سنة ٢٧٨هـ " وفيها تحركت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون بنبوة زارادشت، مزدك وكانوا يبيحون المحرمات، ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل، وأكثر ما ينقادون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم، لأنهم أقل الناس عقولاً ويقال لهم الإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق "[2].

ب – عقائد الباطنية الفاسدة: –

إن المتتبع لأخبار الباطنية وفرقهم ومذاهبهم يلاحظ تناقضاً واضحاً، ويرجع ذلك إلى أهل هذه الفرقة الباطنية الخبيثة إذ أرادوا ذلك لكي تتضارب الأقوال فيهم عند الناس، وبذلك ينفون مايريدون، ويثبتون ما يريدون وأصل مذهبهم كله مبني على الكذب والحيل والخداع، كما أن مذهبهم لايقوم إلا على هذا التلون الكثير ولذلك قال الغزالي: " والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي – لا محالة – أن يكون النقل عنهم مختلفاً مضطرباً، فإنهم لايخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم "[3].

ولذلك يتضح للدارس أن عقائد الباطنية عبارة عن مجموعة من أفكار منحرفة من مذاهب متفرقة، كلها تخبط واضطراب واختلاف، وأحياناً

---

(١) انظر فرق معاصرة للعواجي ج١ ص٢٨٠.

(٢) البداية والنهاية ج٦١/١١.

(٣) فضائح الباطنية ص٣٨.

يستدلون بأحاديث موضوعة ويحرفون الآيات عن مدلولها ومرادها.

وترجع عقائدهم إلى عدة نقاط منها: -

١- إنكار وجود الله.

٢- جحد أسمائه وصفاته.

٣- تحريف شرائع النبيين والمرسلين.

٤- ويسترشدون في ذلك كله بالتشيع لآل البيت أو بزعمهم التجديد والتقدم ولهم مقدرة عجيبة في وضع الشعارات والأكاذيب.

والموضوع أوسع من ذلك ومن الكتب النافعة في هذا الباب فضائح الباطنية للغزالي، وفرق معاصرة للعواجي.

المبحث الثالث

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي

أبو عبدالله الشيعي

وقع الاختيار على اليمن لكي تكون مركزاً لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية، ومن هناك بدؤوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي هي عدتهم في المستقبل، وتسلم القيادة في اليمن رجل يدعى رستم بن حوشب الذي استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين، إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية، فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما " سفيان والحلواني " إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعي واستطاعوا أن يتوغلوا بأفكارهم في قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد، والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الاقصى، والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبدالله الشيعي حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة في التعامل مع الناس ويعتبر أبو عبدالله الشيعي اليماني الصنعاني المؤسس الفعلي لدولة العبيديين الرافضة الإسماعيلية في المغرب، فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلواني وأبي سفيان الداعيتين بالمغرب وقال له: "إن أرض كتامة في بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وسفيان وقد ماتا وليس لك غيرها

فبادر فإنها موطاة ممهدة لك "[1].

وفي مابين ٢٨٨هـ إلى ٢٨٩هـ وصل أبو عبدالله الشيعي الرجل الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيوخ الكتاميين ورجع معهم موهماً أليهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن وعرضوا عليه الذهاب معه إلى المغرب، فأظهر عدم الرغبة، ثم بسياسته الماكرة لبى طلبهم ونزل في القيروان ليبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة، ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل، وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب وبعد أن أيقن أن أقوى القبائل في المغرب هي الكتامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى "ايكجان" وهي بلدة في جبل وعر، وعرف أنها منازل قبيلة " سكتاتة " التي هي بطن من بطون كتامة[2] ونهج في حياته نهج المعلم المؤدب الورع، وسلك سلوك الزهد والعفاف حتى تملك قلوبهم، واشتهر صيته، وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيههم المذهب الشيعي، ثم دخل في الامور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى، وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

بسبب الظلم الذي مارسته دولة الأغالبة على الناس استجابت بعض القبائل

---

(١) انظر موسوعة المغرب العربي ج٢/٥٧ للدكتور عبدالفتاح الغنيني.

(٢) المصدر السابق ج٢/٥٦.

للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة وانتقل أبو عبدالله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة (تازروت) ومن هناك كان يوجه الضربات المتتالية لدولة الأغالبة، واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل، وأعطى عهوداً ومواثيق لرجال وزعماء كتامة أن المستقبل والدولة والتمكن لهم، فخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط وغنم غنائم واشتد حماس أتباعه، وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف، وتذمر الناس من الأمراء ومن ظلمهم. وأظهر أبو عبدالله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله من القادة والجنود، فأعطاه ذلك شعوراً بأن الوقت حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوي الذي سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبدالله الشيعي أن يستولي على جميع النقط الحربية ما بين حصنه في جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفي أوائل جمادى الأولى عام ٢٩٦هـ / ٩٠٩م سقطت مدينة الأريس في يد قوات أبي عبدالله الشيعي وهذه المدينة هي مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد فعجل زيادة الله الاخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة عام ٢٩٦ هـ ودخل عبدالله الشيعي القيروان[1].

وأعلن عبدالله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيدالله المهدي وأنه قريباً سيصل إلى بلاد المغرب ويظهر العدل

---

(١) موسوعة المغرب العربي ج٢/٦٠.

والمساواة فانضم إليه بعض قواد الأغالبة، وأصبح جيشه مائتي ألف مقاتل لكي يدافعوا عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة ومعلوم من دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على حق ومع الإشاعة الشيعية القوية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس بالمهدي المنتظر أصبح الناس قادة وجنوداً لا رأي لهم ولا عقل بل مثل الآلات في التنفيذ وحاول أبو عبدالله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه بالدعاية والمناظرة لإقناع علماء أهل السنة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد إلا أنه أسقط في يديه عندما أقاموا الحجة عليه وعلى دعاته ولذلك اضطر أخو عبدالله الشيعي (أبو العباس) أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السنة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي فمارس مع علماء أهل السنة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم، وضربوا الرقاب، وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء، وصلبوا الفقهاء، وصادروا الأموال، وبطحوا الناس على ظهورهم وأمرو عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام.

واشتد الصراع المذهبي، وهز الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبوعبدالله الشيعي ومنع المناظرة والمجادلة حسماً للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبوعبدالله الشيعي في تثبيت دعائم الحكم في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصاً سيدهم ومطاعهم " غزوية بن يوسف " وأخيه وبقية قومه وأرسل إلى عبيدالله المهدي وابنه القاسم للمجيء إلى القيروان وشد عبيدالله من الشام رحاله "من مدينة سلمية" إلى مصر ثم برقة ثم طرابلس متخفياً في ثياب التجار ولفقت قصص عجيبة في نجاته من ولاة الدولة العباسية ووقع في أسر

بني مدرار أمراء سجلماسة[1].

واستطاع أبو عبدالله الشيعي الصنعاني في ٢٩٧هـ/٩١٠م أن يجهز جيشاً ضخماً حطم به دولة بني مدرار وخلص عبيدالله المهدي وابنه من السجن وفي طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم في عام ٢٩٧هـ/٩١٠م وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى الأمور عبيدالله المهدي الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصاً بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بني مدرار في سجلماسة ودولة رستم في تاهرت ودولة الأغالبة في إفريقية "تونس".

وكانت بيعة عبيدالله المهدي في القيروان عام ٢٩٧هـ / ٩١٠م وانتهت ولاية أبي عبدالله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين[2].

وكطبيعة الثورات تخلص عبيدالله المهدي من أبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس وغزوية بن يوسف بمؤامرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضاً في دراسة التاريخ القديم والحديث وهو أن الاصدقاء والرفقاء الذين لاتقوى لهم وإنما تجمعهم مصالح ومبادئ فاسدة يصفون بعضهم وهذا حدث في الثورة الفرنسية ١٨٧٩م والثورة الجزائرية والثورة السورية والمصرية والليبية والعراقية وهكذا قديماً وحديثاً.

---

(١) موسوعة المغرب العربي ج٢/٦٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٧٠.

وظهر لي أن ذلك سنة من سنن الله الجارية في المجتمعات "من أعان ظالماً سلطه الله عليه" ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾. [الأنعام: ١٢٩].

وذكر المؤرخون أن الخلاف الذي وقع بين عبيدالله المهدي وأبي عبدالله الشيعي على الأموال التي استأثر بها النزق الكاذب عبيدالله المهدي وبعضهم يرى أن أبا عبدالله الشيعي شك في عبيدالله المهدي بأنه ليس المهدي المنتظر.

وصاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبدالفتاح مقلد الغنيمي ذكر السببين[١] ولم يرجح ثم إنه دافع عن نسب العبيديين وأنه في رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء وشن حملة على من طعن في نسب العبيديين ونسبهم إلى اليهود أو إلى المجوس واتهمهم أنهم موالين للخلافة العباسية في بغداد أو الأموية في الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدي.

وأقول: إن ابن كثير رحمه الله الذي نقل أقوال العلماء في البداية والنهاية في الطعن في النسب العبيدي أقوى حجة، وأمتن سنداً، وأعرف بحقائق الدول ومؤسسيها، وعرف بالصدق والأمانة العلمية المتناهية، وكلامه واضح في البداية والنهاية، وأما ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح وذلك في "الكامل في التاريخ "[٢] وهو معروف بميوله الشيعية، وابن تيمية في الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمي، وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال: (والمحققون ينكرون دعواه في النسب وينصون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أدعياء وأنهم من أصل يهودي من سلمية بالشام، وأن والده لقب بالقداح لأنه كان كحالاً يقدح العيون، وقد هلك عبيدالله سنة ٣٢٢هـ وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر، واستمر ملك

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٧٠.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ج٥/١١ وما بعدها.

العبيديين بها نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٦٤هـ، وأزال منها كل آثار العبيديين، وقطع شرورهم عن الناس وأراح الله العباد منهم)[١]. وعلى كل حال فأعمالهم وعقائدهم تدل على أن أبناء المسلمين من السلالة النبوية الشريفة وعلماءهم الأبرار الأطهار وفقهاءهم الأخيار براء من هذه الأقوال الشنيعة، والأفعال القبيحة، وأنا شخصياً أميل إلى أن أبا عبدالله الشيعي اتضح له أن عبيدالله المهدي رجل طامع في الملك والجاه ومستبد ويسعى لمجده وشعر أبو عبدالله ببعده عن مكانته فعمل على الخلاص منه، فحاول اقناع من حوله بأنه ليس هذا هو الذي يحدثهم عنه إلا أن عبيدالله المهدي كان أسرع منه فتخلص الأخير من خصومه، وأما عن نسبه فالحق الواضح البين أن عبيدالله المهدي دعيّ في نسبه ولا صلة له بأهل البيت وهذا ما سنبرهن عليه في ترجمته إن شاء الله.

---

(١) فرق معاصرة ج١/٢٨٩.

المبحث الرابع

عبيدالله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول

(٢٩٧-٣٢٢هـ) (٩١٠م- ٩٣٤م)

ذكر الإمام الذهبي ترجمة لعبيدالله المهدي في سير أعلام النبلاء فقال (عبيدالله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليّة والجهلة[1].

وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دَعيٌّ بحيث إنَّ المُعزّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبَا عن نسبه، قال غداً أخرجِه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمَة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْفَ سَيفِهِ من غِمدِهِ، فقال: هذا نسبي، وأمرهُمْ بنهب الذَّهب، وقال: هذا حسبي[2] أما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيدالله المهدي: (هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها، وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة ٢٦٠هـ، واختبأ في بلدة سَلَمِيَّةَ بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ج١٥/١٤١.

(٢) المصدر السابق ج١٥/١٤٢.

ولد إلى أن استقر في سَلَمِيَّةَ كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن ميمون القداح.

وفي منطقة سَلَمِيَّةَ مقر الإسماعيلية مات علي بن حسين بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي[1] ثم قال " هذا أصل عبيدالله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه.

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان، وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنّما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذين ادّعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرنا آنفاً.

وبعد أن تخلص عبيدالله المهدي من خصومه أراد أن ينشر مذهبه في القيروان ومن ثم الشمال الإفريقي، ولكن طلائع علماء أهل السنة والجماعة نابذوه العداء، وأقنعوا الناس بأن دولة العبيدي كفرية بعيدة عن الشريعة الإسلامية وحدثت بين العبيديين وأهل السنة حروب طاحنة فانتقل عبيدالله المهدي إلى المهدية بعد أن بذل في بنائها وتحصينها أموالاً طائلة، إلا أن شعور الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين في الشمال الإفريقي لضراوة المقاومة التي قادها علماء أهل السنة ضدهم، فأخضع المدن بقوة السلاح وفكر في الانتقال إلى مصر، وأرسل عدة حملات إليها إلا إنها فشلت أمام جيوش العباسيين التي قادها " مؤنس الخادم "

وكانت أشد هذه الحملات خطراً على مصر الحملة التي كانت في عام

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٥٣.

٣٢١هـ واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود " محمد الإخشيدي"[١].

واستمر عبيدالله في حكمه إلى أن هلك في عام ٣٢٢هـ وله اثنتان وستون سنة. وكانت دولته خمساً وعشرين سنة وأشهر[٢].

وبهذا نلحظ: - أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدي المنتظر ونجد في التاريخ الإسلامي كثيراً من الثورات والدول التي قامت واعتمدت على هذا المعتقد. فرأيت من المناسب والمهم في بناء السياج العقيدي الصحيح على أصول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن أبين معتقد أهل السنة في قضية المهدي المنتظر حتى يسهل على الناس كشف الدجالين الأفاكين وسأجعل معتقد أهل السنة في المهدي عقب انتهاء ترجمة العبيدي.

نجد أن عبيدالله المهدي اعتمد على ادعائه على هذه الدعوة حتى بعد أن استطاع أبو عبدالله الشيعي أن يزعزع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيدالله المهدي قد شككنا فيك، فأت بآية، فأجاب بأجوبة، قبلها عقله وقال إنكم تيقنتم، واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

وكانت المسائل التشكيكية في المهدي التي طرحها أبو عبدالله الشيعي على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها وهذا قد دخل معه بولَدين. ونص أن الأمر في الصغير بعده، ومات الولد بعد عشرين يوماً فلما سأل كبير زعماء كتامة عبيدالله المهدي عن الطفل قال عبيدالله المهدي إن الطفل لم

---

(١) موسوعة تاريخ المغرب ج٢/٧٦.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ج١٥/١٥١.

يمت، وإنه أمَامُك، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى قال كبير زعماء كتامة آمنت.

وقال أبو عبدالله الشيعي إن الإمام لايلبس الحرير والذهب وهذا قد لبسهما. وليس له أن يطأ إلاّ ما تحقق أمره وهذا قد وطئ نساء زيادة الله التغلبي يعني عبيدالله المهدي، فلما سأل كبير كتامة عبيدالله المهدي فأجاب أنا نائب الشرع أحلّل لنفسي ما أريد، وكل الأموال، وزيادة الله كان عاصياً[1].

والمقصود في نقلي هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغريرهم لجهلهم واعتمادهم على معتقدات في الأئمة من تعظيم آل البيت والإيمان بالمهدي المنتظر وغير ذلك فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السنة في المهدي المنتظر.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/١٤٦).

المبحث الخامس

عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي

بينت الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما مُلئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتُمطر السماء قطرها، ويُعطي المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزُرُوع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير في أيامه دائم) [1].

اسمه وصفته

وهذا الرجل اسمه كأسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، واسم أبيه، كأسم أبي النبي – صلى الله عليه وسلم – فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبدالله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهم.

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم ج١/٣١، تحقيق د.طه زيني.

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: (وهو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه)[1].

وصفته الواردة: (أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف) [2].

مكان خروجه

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقتتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم. . (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال...) فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبوا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي)[3].

قال ابن كثير - رحمه الله -: (والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق " لامن سرداب سامراء " كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان... إلى أن قال (ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سودٌ

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم ج١/٢٩.

(٢) الأجلي: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

(٣) أخرجه ابن ماجة، كتاب الفتن، باب خروج المهدي ج٢/١٣٦٧، ومستدرك الحاكم "٤/٤٦٤" وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

- جل مبحث المهدي المنتظر اختصرته من كتاب أشراط الساعة وهو رسالة ماجستير ليوسف الوابل.

أيضاً "وهو زيٌّ عليه الوقار" لأن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سوداء يقال لها: العقاب) .

إلى أن قال: (والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث) [1].

٢- وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟!) [2].

٣- وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لاتزال طائفة من أُمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) إلى أن قال: (فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة) [3].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدلّ على صلاح هذا الأمير وهُداه.

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم ج١/٣١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الانبياء، نزول عيسى بن مريم عليه السلام ج٦/٤٩١ مع الفتح.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ج٢/١٩٣ مع شرح النووي.

وجاءت الاحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمَّى: محمد بن عبدالله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

١- فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منا الذي يصلّي عيسى بن مريم خلفه)[١].

٢- وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة)[٢].

٣- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المهدي منّي أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين) [٣].

أولاً: تواتر أحاديث المهدي

١- قال الشوكاني: (الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرّحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك)[٤].

---

(١) رواه أبو نعيم في " أخبار المهدي " صححه الالباني صحيح الجامع الصغير " ٥/٧١٧٠ ".

(٢) " المنار المنيف " لابن القيم ص ١٤٧- ١٤٨.

(٣) سنن أبي داود، كتاب المهدي ج١١/٣٧٥ رقم ٤٢٦٥.

(٤) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

٢- قال صديق حسن خان: (الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد)[١].

٣- وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: (والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدَّجَّال وفي نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام) [٢].

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد، " مسند أحمد " " مسند البزار "، "ومسند أبي يعلي" و"مسند الحارث بن أبي أسامة" و "مستدرك الحاكم" و"مصنف بن أبي شيبة" و"صحيح بن خزيمة" وغيرها من المصنفات[٣] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه.

ثانياً: المنكرون لأحاديث المهدي والرد عليهم

ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة[٤].

---

(١) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص١١٢.

(٢) نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص١٤٧.

(٣) عقيدة أهل السنة والاثر في المهدي المنتظر للعباد ص١٦٦ - ١٦٨.

(٤) تفسير المنار ج٩/ ٤٩٩-٥٠٤.

وممن أنكر آحاديث المهدي صاحب "دائرة معارف القرن العشرين"[1] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا، فقد قال - بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها:- (فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه)[2].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون: (ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة)[3].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: (إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين " الجرح مقّدم على التعديل ولو اطّلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره)[4] ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصحّحين.

وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً.

---

(١) دائرة المعارف القرن العشرين ج١٠/٤٨٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون ج١/٥٧٤.

(٣) اشراط الساعة للوابل ص٢٦٧.

(٤) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام احمد ج٥/١٩٧- ١٩٨.

وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً وهذا يكفي وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنَّفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لايجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عيَّن إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لايؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث ثم إن المهدي الحقيقي لايحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يُعتَدُّ به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلايجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

قال العّلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: " وأما الرافضة الإمامية،

---

(١) انظر أشراط الساعة ص٢٦٧.

فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحَسَّ فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم !! ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يامولانا ! اخرج يامولانا ! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسِّرْدَاب أن يَلِدَ الذي
كَلَّمْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَا آنا ؟
فَعَلى عُقُولِكُمُ العَفاءُ فإنَّكُم
ثَلَّثْتُمُ الْعَنْقَاءَ والغيْلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل)[1].

وإلى هنا يكفي الإيضاح في بيان حقيقة المهدي عند أهل السنة والجماعة وبذلك يتضح للقارئ الكريم الميزان الصحيح في دعوة كل مدعي للمهدية.

إن من أسباب الكارثة الكبرى التي وقعت في قبائل الشمال الإفريقي هي جهلهم بحقائق الأمور المستنبطة من الكتاب والسنة ولذلك سهل على أبي عبدالله الشيعي أن يقود القبائل الكتامية إلى معتقداته الباطنية الرافضية الفاسدة.

---

(١) انظر المنار المنيف ص ١٥٢ - ١٥٣.

الفصل الثاني

الصراع بين الدولة العبيدية وأهالي الشمال الإفريقي

المبحث الأول: -

ثورة قبيلة هوارة في طرابلس

بعد أن احتل عبيدالله المهدي طرابلس عين ما كنون بن ضبارة اللحياني الكتامي والياً عليها وثارت قبيلة هوارة على والي طرابلس لعدم استقرار الأمور وحاولت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذي لم تستقر فيه الأحوال في الشمال الإفريقي.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرها من القبائل البربرية إلى قبيلة هوارة وقاد هذه الثورة ضد العبيدين في طرابلس أبوهارون الهواري وحاصروا طرابلس واحتمى ماكنون بسور المدينة.

وأنجده عبيدالله المهدي بجيش بقيادة تمام بن معارك " أبازاكي - وهو ابن أخي ماكنون ".

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضي على هذه الثورة الوليدة في مهدها.

وأوعز عبيدالله المهدي إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه فقتل العم ابن أخيه تمام في غرة ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ وشعر ماكنون بأمان واستقرار، فتطاول في الحكم وسمح لبني قومه من كتامة بالتعدي على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل في أمورهم، فثار به

أهل طرابلس سنة ٣٠٠هـ وأخرجوه منها، فلحق بالمهدي برقّادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتاميين، وأغلقوا أسوار المدينة، فأرسل عبيدالله المهدي أسطولاً بحرياً استطاع الأسطول الطرابلسي أن يحرقه وأن يقتل من فيه فأرسل عبيدالله ابنه أبو القاسم بجيش عرمرم بطريق البر فاعترضت له هوارة، إلا أنه استطاع أن يهزمها ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليها حصاراً أفنى مابقي من أقوات الناس في المدينة حتى أكلوا الميتة، ولم يستطع بن إسحاق أن يواصل المقاومة وتفاوض أعيان طرابلس مع أبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد بن إسحاق، ومحمد بن نصر ورجلاً آخر يقال له الحوححة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه ودخل طرابلس وأرهق أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، وتخلص أبو القاسم الشيعي من الأغالبة الذين كانوا في المدينة مدعياً أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابي مال الغرامة هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته وقد قتل على يد ابن كيداد اليَفَرَني لما استولى على القيروان سنة ٣٢٢هـ.

وبعد أن استقرت الحال في طرابلس قفل أبو القاسم الرافضي إلى رقادة وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم ثم قتلهم[1].

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

ويتضح من هذه الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس غير راغبين في الحكم العبيدي إلا أنهم خضعوا له بقوة السلاح.

وكتب التاريخ تؤكد على دور علماء وفقهاء طرابلس وجهادهم في مواجهة الفكر الشيعي والمد الرافضي والمعتقد الباطني الذي تكفلت دولة بني عبيد بنشره في الشمال الإفريقي.

المبحث الثاني

زحف العبيديين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيدالله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي وكان قاسياً شديداً نزعت الرحمة من قلبه، فتوجه في عام ٣٠١هـ نحو سرت لأنها لازالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب، وهجرها من كان فيها من جنود العباسيين والأغالبة، ثم تقدم حباسة إلى اجدابية فهجرها من كان فيها من العباسيين والأغالبة، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون قتال، واحتل مدينة برقة وكانت جيوش العبيديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفي بوعد وكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، ومن فظاعة أعماله التي ذكرتها كتب التاريخ ما فعله بمجموعة من الناس كانوا يلعبون بالحمام في برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا في النار. إن هذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سنية وربما يتقربون بها إلى الله على زعمهم الفاسد.

ومن أعماله الشنيعة ماقام بإعلانه في برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد ألف رجل، فأمر بهم فقتلوا جميعاً، ثم وضع جثثهم بعضاً على بعض، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، وقد مات منهم أناس من

هول ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتوني غداً بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعاً، فأحضروها له.

وانتقم من حارث ونزار ابني جمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة برقة، وباع نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيراتهم وقد اغتم أهالي برقة من هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيدالله المهدي، فاعتذر الملعون وحلف يميناً كاذبة أنه ما أمر بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعله في برقة[1].

وفي سنة ٣٠٢هـ تقدمت جيوش أبي القاسم الرافضي إلى الإسكندرية ولم ينل ما أراده ورجع مهزوماً، وسبب ذلك أن أبا القاسم أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليه ملكهم فرد عليه الصولي بقصيدة على وزنها ومنها:

فلو كانت الدنيا مثالاً لطائر ... لكان لكم منها بما حزتم الذّنب

فغضب من هذا البيت وقال: (والله لاأزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت أو أهلك دونه) [2].

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٤٧.

(٢) المصدر السابق ص٢٤٨.

ثورة أهل برقة على العبيديين

وفي هذا السنة ٣٠٢هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيراً من رجال كتامة، فأرسل المهدي جيوشه سنة ٣٠٣هـ لتأديبهم والانتقام منهم، وقاد هذه الجيوش أبو مديني ابن فروخ اللهيفي وحاصر مدينة برقة ثمانية عشر شهراً ودخلها سنة ٣٠٤هـ عنوة، فقتل أكثر أهلها، وأحرق دورها، وهتك أعراض نساءها وبعث بالأسرى إلى عبيدالله الذي أمر بقتلهم وبقي أبو مديني ببرقة إلى أن مات بها سنة ٣٠٦هـ[١].

وفي سنة ٣٠٤هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر في ذي القعدة سنة ٣٠٦هـ واستولوا على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا.

وفي سنة ٣٠٨هـ تم بناء المهدية وانتقل إليها المهدي وفي سنة ٣١٠هـ خرجت نفوسة على عبيدالله وقدموا عليهم أبابطة، فقوي شأنه وعظمت شوكته وكان مذهبهم إباضي فأرسل إليهم عبيدالله جيشاً بقيادة عليّ بن سليمان الداعي فانهزم جيش العبيديين وفرّ عليّ إلى طرابلس، ثم أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعيِّن محمد بن عمر النفطي قاضياً على طرابلس، واستطاعت الدولة العبيدية أن تفرض نفوذها بقوة السلاح على إفريقية، وطرابلس، وبرقة، وجزيرة صقلية في حكم عبيدالله المهدي.

المبحث الثالث

خروج أبي يزيد الخارجي على العبيديين

هو مخلّد بن كيداد اليَفْرَني بن سعد الله، بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن يفرن، ويَفْرن هذا أخو مغراوْ الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة، وأمه أم ولد واسمها سيكة، وهي من بلاد السودان التي كان يتردد عليها والده للتجارة فاتخذها جارية له[1].

وعاش أبو يزيد فقيراً وطلب المذهب الخارجي فتتلمذ على النّكارية[2]، وكان في أول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم وقضى معظم وقته في التعليم وظهر في بداية أمره بمظهر الزهاد فكان يركب حماراً ينتقل به بين القبائل والجبال فلقب بصاحب الحمار. وتذكر بعض كتب التاريخ أنه لما قاد الثورة ضد العبيديين كانت سنة تقارب التسعين، واستغل العداء بين زناتة والعبيديين وما مارسته دولة الروافض من أخذ الضرائب حتى فاقوا في ظلمهم الأغالبة واشتدت معارضة البرابرة بعد أن أعلن الروافض لعن الشيخين "أبي بكر وعمر" على المنابر وفي المنتديات والحلقات وفي خطب الجمعة. فبدأ أبو يزيد في إعداد العدة في منطقة الجريد وأشعل الشمال الإفريقي بحروب طاحنة، وكانت بداية ثورته في زمن عبيدالله إلا أن الأخير هلك قبل القضاء عليه وثار

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٤٨.

(٢) المصدر السابق ص٢٤٩.

أبو يزيد علـى محمد بـن عبيدالله فـي جهـات طرابلس سنة ٣٣٣هـ وضـرب حصاراً على طرابلس وتابعه كثير من البربر من شدة جور محمد بـن عبيداللـه المهدي لأهل السنة، وظلمه لهم، وتعذيبه إياهم، ورأى علماء أهل السنة الوقوف مع أبي يزيد ضد بني عبيد وقالوا هم أهل القبلة أي أصحاب أبـي يزيد وأولئك ليسوا من أهل القبلة، وهم بنو عدو الله[1]، وسمى أبو يزيد نفسـه شيخ المؤمنين، وكان يضمر لأهل السنة أشد العداوة، لأنـه كـان نكارياً[2] يستحل أموال أهل السنة ونساءهم، فانتهز كراهية أهل السنة لمحمد بن عبيدالله وأخفى عليهم عقيدته وأظهر لهم صداقته ولما رأى القدرة مـن نفسـه غدر بـأهل السنة وخلّى بينهم وبين محمد بن عبيدالله يقتلهم ويستبيح نساءهم ويغتصب أموالهم ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل حلفائه وأعوانه فينفض الناس من حولـه لفعل بأهل السنة الأعاجيب.

ومع ذلك فقد فُضِحَ أمره وانفض الناس من حوله وكـان أبـو يزيد الخـارجي قاسي القلب، جباراً عنيداً. قال الشيخ طاهر الزاوي: (تدل أفعاله على نبذ الأديان، وعدم احترام الإنسانية دخل القيروان بعد أن خرب البلاد وقتل الرجال، وسبى النساء وشق فروجهنّ، وبقر بطون الحوامل، والتجأ النـاس إلى القيروان حفاة عراة، ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً وشكا إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من الخراب، فقال لهم في سخرية واستهزاء: (وما يكون

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٥/١٥٥.

(٢) النكارية فرقة من فرق الخوارج.

لوخربت مكة والبيت المقدس) [١].

وهكذا إذا غابت العقيدة السليمة، وغاب التصور الصحيح، والمنهج الرباني يصبح الإنسان وحشاً مفترساً في حروبه لامنهج يلزمه، ولاعقل يمنعه، ولاشرع يوجهه.

إن عقيدة أبا يزيد الخارجي الفاسدة جعلته جباراً عنيداً وغادراً ومفسداً لايراعي عهداً ولاذمة لأحد وهذا دليل على انطماس الفطرة وانغماسه في وحُول المستنقعات النتنة البعيدة عن نور الوحيين " كتاب الله وسنة رسوله ".

واستطاع العبيديون الروافض القضاء على ثورة أبي يزيد في زمن إسماعيل محمد المهدي الملقب " بالمنصور"، حيث استطاع المنصور أن يوقع بجيوش أبي يزيد خسائر فادحة في الأموال والرجال وتابعه حتى تمكن منه بعد جهد جهيد وظفر به مثخناً بجراحه ومات متأثراً بها، فسلخ المنصور جلده وحشاه تبناً وصلبه[٢].

وقال العبيديون في هذا الموقف شعراً نظمه علي بن محمد الأيادي الشاعر:

فارتقى الملعون من خيفته ... في ذرى أعيط عال مُصعَّد

في ذرى حلقاء ملساء على ... ذلك المعقل ليست بصدد

معقل من فوقه الله ومن ... تحته المنصور في جيش مُعد

فارتقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد

فإذا مخلد في كف الردى ... موثق الجيد بحبل من مسدد

فأبى الله سوى إعجاله ... وعذاب الله للجسم أهد

فنفى عنه أيدما دنسا ... كان قد أسرف فيه ومرد

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٥١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/١٥٧.

كأديم التيس لما لم يطب	ريحه جرد منه فانجرد
وحشاه سالخوه سعفاً	مالياً ما بين كعب وكند
ثم رقاه على مستحصد	باسق أجرد مافيه أود

وبقى مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرته الرياح وكان ذلك في المحرم سنة ٣٣٦هـ وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه فأرسل إليه المنصور قائده زيري ابن مناد[١] فقتله، وانتهى أمر أبي يزيد الخارجي وابنه.

لم تكن ثورة أبي يزيد ذات خطة واضحة ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة حيث إنه استطاع بجيوشه أن يكبل العبيديين خسائر فادحة وينتزع منهم الملك ويحاصرهم في المهدية. ومع هذا وقف حائراً فأساء السيرة مع كثير من القبائل ففقدت الثقة فيه وانفضت من حوله وإنما الواضح في ثورته الانتقام وسفك الدماء من مخالفيه بطريقة وحشية همجية تدل على قلب حقود لكل من يخالفه، واستغرقت هذه الثورة النارية أربعة عشر عاماً انشغلت بها دولة العبيديين الروافض.

ولعل هذا من سنة الله في تسليط بعض الظالمين على بعض، حيث قتل الألوف من أتباع الطرفين وفقد الأمن والأمان في الشمال الإفريقي.

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٥١.

المبحث الرابع

القائم بأمر الله الخليفة الثاني الرافضي
أبو القاسم نزار بن عبيدالله
٣٢٢هـ - ٣٣٤هـ، ٩٣٤ - ٩٤٥م

هو أبو القاسم محمد بن المهدي بن عبيدالله ولد في سلمية سنة ثمان وسبعين ومئتين، بويع له بخلافة الروافض في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير، فاسد العقيدة، خرج عليه في سنة اثنتين وثلاثمائة أبو يزيد مخلد بن كَيْدَاد البربري الخارجي. وجَرَت بينهما ملاحم وحروب، وحصره مَخْلَد بالمهدية، وضيق عليه واستولى على بلاده ثم وُسْوِسَ القائم، واختلط وزال عقله وكان شيطاناً مريداً يتزندق فأظهر سب الأنبياء. وكان أتباعه يصيحون العَنُوا الغار وماحوى. وأباد عدداً من العلماء. وكان يراسل قرامطة البحرين، ويأمر بإحراق المساجد والمصاحف.

واستغل أبو يزيد الخارجي كفر أبي القاسم وألب عليه إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان، وكاد أن يتملك أبو يزيد المغرب بأجمعه وركزت ألويته عند جامع القيروان فيها: لا إله إلا الله لاحكم إلا لله وعلمان أصفران فيهما: نصر من الله وفتح قريب، وعلم لأبي يزيد فيه: اللهم

انصر وليك على مَنْ سَبَّ نبيك[1].

وكان القائم العبيدي يقذف الصحابة علناً ويطعن في النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه أمر بتعليق رؤوس كباش على الحوانيت، وكُتبَ عليها إنها رؤوس الصحابة. وبسبب كفرهم وطغيانهم قال الشاعر في بني عبيد:

الماكر الغادر الغاوي لشيعته ... شرُّ الزنادقة من صحب وتُبَّاع

العابدين إذاً عِجلاً يخاطبهم ... بسحر هاروت من كُفر وإبداع

لو قيل للروم أنتم مثلهم لبكَوا ... او لليهود لَسَدّوا صِمَخَ أسمَاع[2]

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٥/١٥٢ - ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ج١٥/١٥٦.

المبحث الخامس

الخليفة الشيعي الرافضي الثالث في الشمال الإفريقي
المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل
٣٣٤- ٣٤١هـ، ٩٤٥ - ٩٥٢م

هو أبو الطاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي، العُبيديُّ الباطني صاحب المغرب

تولى خلافة الروافض بعد أبيه، وهو الذي قضى على ثورة أبي يزيد الخارجي النّكاري.

قال عنه الذهبي: (وكان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش فصيحاً مُفوّهاً يرتجل الخُطب، وفيه إسلامٌ في الجملة وعقل بخلاف أبيه الزّنديق) [١]

قلت: وقول الذهبي وفيه إسلام في الجملة فيه نظر.

وذكر الذهبي شيئاً في كرمه فقال: (وقد جمع مرّة من أولاد جُنده ورعيته عشرة آلاف صبي، وكساهم كُسْوةً فاخرة، وعُمل لهم وليمة لم يُسمع قط بمثلها، وختنهم جميعاً، وكان يهب للواحد منهم المئة دينار والخمسين ديناراً على أقدارهم.

ومن محاسنه أنه ولّى محمد بن أبي المنظور الأنصاري قضاء القيروان. وكان من كبار أصحاب الحديث، وقد لقي إسماعيل القاضي والحارث بن أبي

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٥ - ١٥٧.

أسامة، فقال: بشرط أن لا آخُذ رِزقاً ولا أركب دابة، فولاّه يتألف الرعيّة، فأحضر إليه يهوديٌّ قد سَبَّ، فبطحه، وضربه إلى أن مات تحت الضرب لعلمه أنه لو رفع إلى المنصور لا يقتله فضربه القاضي مظهراً ضرب الأدب حتى قتله[1].

توفي في سنة إحدى وأربعين ومئة بسبب برد وريح عظيمة أصابته مع جنوده وحاشيته عندما كان يتنزه.

وكان يتودد إلى رعيته واقتصر على إظهار التشيع، وقام بعده المعزُّ ولده[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٥/١٥٨.

(٢) المصدر السابق ج١٥/١٥٩.

المبحث السادس

المعز لدين الله أبو تميم سعد

ذي القعدة ٣٤١- ربيع ٣٦٢هـ

هو مَعَدُّ بن إسماعيل المنصور، وكنيته أبو تميم، ولد بالمهدية في ١١ من رمضان سنة ٣١٩هـ وعهد له والده بالخلافة بعده، وجلس على سرير الملك من ذي الحجة سنة ٣٤١هـ وهو الخليفة العبيدي الرابع الذي حكم الشمال الإفريقي.

واستطاع أن يمد نفوذه على معظم الشمال الإفريقي شرقاً وغرباً، ففي سنة ٣٤٢هـ ولى باسيل الصّقليّ عاملاً على سرت، وولّي على إجدابية ابن كافي الكتامي. وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب. وتوسعت أملاكه في صقلية سنة ٣٥٤هـ، وفي أيامه دخل اليهود إفريقية. وأصبحت حدود مملكته إلى حدود مصر ومن ثم استطاع أن يتابع أحوال الحكام والأمراء في مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٥هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب. فعزم وذبر وأقدم على خفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة، واختار جوهر الصقليّ قائداً لتلك الجيوش التي كانت تزيد عن مائة ألف. وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقليّ.

وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة. فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية في مصر فرمى بسهامه المسمومة إليها، ودفع إليها جيوشه المحمومة طالباً من أعوانه وشياطينه أن يقضوا على الخلافة العباسية الأبية ذات التوجهات السنية.

وقد حاول المعز أن يضم الأندلس السنية إلا أن رجالها البواسل منعوه من أن يصل إلى هدفه، وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة خادمه جوهر الصقليّ الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقليّ هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة ٣٦١هـ ليكون منبراً من منابر العبيديين الروافض في بث معتقداتهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ثم تحول بفضل الله ثم جهود صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على العبيديين في مصر إلى قلعة من قلاع أهل السنة، ودخلت جيوش العبيديين إلى دمشق سنة ٣٥٨هـ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد العبيديين[١].

رحلة المعز إلى مصر

وبعد أن مهدت مصر للمعز العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال

---

(١) انظر الفتح العربي في ليبيا ص٣٦٢.

الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بُلكين ابن زيري وضم المعز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعره الملحد الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

فكأنمـــــا أنت النبي محمدّ

وكأنمـــــا أنصارك الأنصارُ

ماشئت أنت لاماشاءت الأقدار

فأحكم فأنت الواحد القهــــار

هذا الذي تجدي شفاعته غداً

حقـــاً وتُخُمُــــــد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:-

النور أنت وكل نور ظلمة

والفوق أنـــت وكل فوق دون

فارزق عبادك فضل شفاعة

وأقرب بهم زُلفى فأنت مكين

ومنه:-

تدعوه منتقماً عزيزاً قـــادراً

غفّاراً مُوبقـــة الذنوب صَفوحا

أقسمت لولا أن دُعيــت خليفة

لدُعيــتَ من بعد المسيح مسيحا

شهِدتْ بمفخركَ السموات العلا

وتنّـــــزَلَ القرآن فيك مديحاً

ومنه:-

وَعلمتَ من مكنون سر الله ما

لم يؤت في الملكوت ميكائيلا

لو كان آتى الخلق ما أوتيـــته

لـــــم يخلق التشبيه والتأويلا

وكان المعز وكذلك أجداده يستمعون إلـى مثـل هـذه المكفرات ولا ينكرونهـا ويقرونهم عليها وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في ٣٦٢هـ .

وقتل الملحد الكافر ابن هانئ فـي برقـة " مقبرة الملاحـدة " فـي رجـب سـنة ٣٦٢هـ وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكـلاب على ساحل بحر برقة.

وتأسف المعز على قتله وقال: هذا الرجل كنـا نرجـو أن نفـاخر بـه شـعراء المشرق فلم يقـدر لنـا ذلـك[1] واسـتمر المعـز فـي سـيره، حتـى قـارب الحـدود المصرية ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سـنة ٣٦٢هـ واسـتقبلته وفـود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر.

وامتد ملك المعز من سبته بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بـأوامره سـكان سواحل المحيط الأطلنطي.

وبقي المعز في مصر سنتين ونصف، وتوفي بالقاهرة في السابع مـن ربيـع الأول سنة ٣٦٥هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة[2].

قال الشيخ طاهر الزاوي رحمـه اللـه: (ودامـت دولـة الفـاطميين ٢٦٠ سـنة، منهـا اثنتـان وخمسـون سـنة بـالمغرب ومائتـان وثمـان سـنوات بمصـر. وعـدد خلفائهـا أربعـة عشـر خليفـة أولهـم عبيداللـه المهـدي، وآخرهـم العـاضد الــذي

---

(١) انظر الفتح العربي في ليبيا ص٣٦٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٦٢.

توفي بمصر يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب والملك لله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء) [١].

قال الذهبي رحمه الله: (ظهر في هذا الوقت الرَّفضُ، وأبدى صفحته، وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم وبني بُويَه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بُويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَسٌ فعزوله وأقاموا ابنه الطّائع لله. وله السكة والخطبة، وقليلٌ من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن[٢].

وكان المعز شاعراً.

فمن شعره:

لله ما صَنَعتْ بِنَا
تلك المحاجر في المَعاجر[٣]

أمضى وأقضى في النفو
س من الخناجر في الحَنَاجِر

ولقد تعبتُ ببينكم
تَعَبَ المهاجر في الهواجر[٤]

وقال الذهبي رحمه الله في المعز: (وعاش ستاً وأربعين سنة وكان مولده بالمهدية ودفن بالمّعزِّيَّه بالقاهرة في عام خمس وستين وثلاث مئة[٥].

---

(١) انظر الفتح العربي في ليبيا ص٢٦٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ج١٥/١٦٤.

(٣) المعاجر: وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.

(٤) سير أعلام النبلاء ج١٥/١٦٣-١٦٤.

(٥) المصدر السابق ج١٥/١٦٦.

المبحث السابع

جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي

لقد ارتكب الباطنيون الروافض الشيعة في أهالي الشمال الإفريقي من أهل السنة ما تشيب منه الولدان ولاتصدقه العقول وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

١- فعندما ادعى عبيدالله الرسالة احضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسي ملكه وأوعز إلى أحد خدمه، فقال للشيخين " أتشهدا أن هذا رسول الله ؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله، ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما"[١] وهذان الشيخان المغربيان هما ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبي عن ابن بردون: (هو الإمام الشهيد المفتي، أبو إسحاق، إبراهيم بن البَرْذُون الضَّبي مولاهم الإفريقي المالكي، تلميذ أبي عثمان الحداد)[٢].

وطلب منه لما جرّد للقتل: أترجع عن مذهبك ؟ قال: أعن الإسلام أرجع؟

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٤/٢١٧.

(٢) المصدر السابق ج١٤/٢١٥.

وقيل في سنة تسع وتسعين ومئتين[١] إن عبيدالله المهدي الزنديق لم يدع الرسالة فحسب بل سمح لأتباعه أن يغرقوا في كفرهم حتى ألّهوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: (وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا الذي برقادة). ومن ادعى معرفة الغيب والغيب لايعلمه إلا الله وهذا الأمر من خصوصيات الألوهية فمن ادعاه لغير الله يقع في الشرك والكفر العظيم قال تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين..﴾[٢].

﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون...﴾[٣].

كما أن الحلف لايكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت..). وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء[٤].

٢- لقد كان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفائهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس وقد ظهر لك في شعر ابن هانئ الأندلسي في مدحه للمعز وكان أحد شعرائهم مدح عبيدالله فقال:

حلّ برَقَّادة المسيح ... حلّ بها آدم ونوح

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٥/٢١٥.

(٢) سورة الأنعام.

(٣) سورة النمل.

(٤) انظر: كتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب ص ٩٠.

حلّ بهـــا اللــــــه ذو المعالـــــي

فكـــــلّ شيء سواه رايح[1]

كما شبه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة وقصر المهدي بالكعبة

هي المهدية الحــرم المُوقّـــــــي

كمـــا بِتهامة البلد الحرام

وإن لثم الحجيج الرّكـــن أضحى

لنا بعــراص قصركم التثام[2]

٣- شنوا حرباً نفسية على أهل السنة وذلك بتعليق رؤوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدواب وكتبـوا عليهـا أسماء الصحابـة (لعنهم اللـه أنـى يؤفكون) وأظهروا سبّ الصحابة رضوان الله عليهم، وطعنـوا فيهـم وزعمـوا أنهم ارتدّوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم وخصصـوا دعـاة للنـداء بذلـك فـي الأسواق.

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على عليّ رضي الله عنه قُتـل أو سُجِن[3].

٤- عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم مـن الخلفـاء السنيين، ولذلك أصدر عبيدالله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصـون والمسـاجد، وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الرافضي الخبيث علـى أمـوال الأحبـاس وسلاح الحصون، وطرد العبّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزنـاً للسلاح[4].

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان ج١/٧٢.

(٢) البيان المغرب ج١/١٨٤.

(٣) مدرسة الحديث في القيروان ج١/٧٣.

(٤) انظر رياض النفوس ج٢/٥٦.

٥- حرص العبيديون على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء(١).

وهذا الفعل لايزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لاترى إلا مايراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد).

٦- أتلفوا مصنّفات أهل السُّنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجيبي (ت ٣٤٦) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخطّ يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها (ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه) (٢).

٧- حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: (هذا جزاء من يذهب مذهب مالك) ، ولم يُبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزلي " أبو عبدالله محمد بن العباس بن الوليد " المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة(٣).

٨- منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لاتقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التّبان وغيرهما، يأتيان

---

(١) انظر رياض النفوس ج٢/٢٩. وجل هذا المبحث من كتاب مدرسة الحديث في القيروان مع تصرف واضح.
(٢) المصدر السابق ج٢/٤٢٣.
(٣) المصدر السابق ج٢/٥٦.

إلى أبي بكر بن اللّبّاد، شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتّل بالعرق خوفاً من بني عبيد) [١].

وهذا المسلك لازالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كلياً وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدولة الكبرى.

٩- اجبروا الناس على الدّخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه، وربما ولّوه بعض المناصب، ومن رفض قُتل، كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيدالله بالقيروان، وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة فأمر الشيعي بالكف عن العوام وافتعل مناظرات صورية، فدارت على علماء السنة محن عظيمة وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السنّة قال القابسي: (إن الذين ماتوا في دار البحر " سجن العبيديين " بالمهدية من حين دخل عبيدالله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح) [٢] هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة، مثل أبي محمد الورداني[٣] ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بأصول أهل السنة والجماعة[٤].

١٠- عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع

---

(١) انظر مدرسة الحديث بالقيروان ج١/٧٦.
(٢) المصدر السابق ج١/٧٤.
(٣) المصدر السابق ج١/٧٥.
(٤) المصدر السابق ج١/٧٥.

إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيدالله لابساً فرواً مقلوب، دابّاً على يديه ورجليه، فيقول لهم: (بَحْ) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: (فأما دخولي على يديّ ورجليّ فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لاشيء، لاوضوء ولا صلاة ولا زكاة ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنّكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم: بَحْ، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلّها مباحة لكم من الزّنى وشرب الخمر...)[1].

ويعجبني في هذا المقام ما قاله شاعر أهل السنة في الشمال الإفريقي أبو القاسم الفزاري في هجاء بني عبيد:

عبدوا ملكوكهم وظنّوا أنهم
نالوا لهم سب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم
فأراهم عوج الضّلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق
في أحكامهم لاسلّموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحاً
وأبا قدرة واللعين تميماً
تبعوا كلاب جهنّم وتأخّروا
عمّن أصارهم الإله نجوما
ياليت شعري من هم إن جهّلوا
دنيا،ومن هم إن عددت صَميما
أمِن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم
دهرية جعلوا الحديث قديما

---

(١) رياض النفوس ج٢/٥٠٤.

أم هم من الصّابين أم من عصبة

عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما

أم هم زنادقة معطلة رأوْا

أن لا عذاب غداً ولا تنعيما ؟

أم عصبة ثَنَوِيَّةٌ قد عظمَّوا

النّورَيْنِ عن ظُلماتهم تعظيماً ؟

من كلّ مذهب فرقة معلومة

أخذوا بفرع وأدعوه أُرُوما[١]

وستأتي قصيدته الرائية التي هجا فيها بني عبيد وكيف نجاه الله منهم بإذن الله تعالى.

١١- زادوا في الأذان: (حيّ على خير العمل) ، وأسقطوا من أذان الفجر (الصلاة خيرٌ من النوم) ، ومنعوا الناس من قيام رمضان، وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة، ومنعوا صلاة الضحى، وقدموا صلاة الظهر لفتنة الناس. أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضروباً من الكفر، فتركها الناس وأقفرت المساجد في زمانهم، وكان بعض أئمتهم يصلّون إلى رَقادة فلّما انتقل عُبيدالله إلى المهدية صلّوا إليها[٢] وكثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[٣] بل قتلوا من أفتى بأن لافطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحُبُلى قاضي مدينة برقة.

قال الذهبي رحمه الله في ترجمته: (الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد ابنُ الحُبُلي.

(١) رياض النفوس ج٢/٤٩٤ - ٤٩٥.

(٢) انظر مدرسة القيروان ج١/٧٣.

(٣) المصدر السابق ج١/٧٣.

أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: حتّى نرى الهلال، ولا أُفطِّر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور - وكان هذا من رأي العبيدية يفطِّرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية - فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد. فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تَنَصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فعُلِّقَ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ. ثم صلبوه على خشبة. فلعنة الله على الظالمين) [1].

١٢- من جرائم عبيدالله الكثيرة أن خيلة دخلت المسجد فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد ؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله. يقول ابن عذارى: وامتحن عبيدالله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك)[2].

إن أجيال المسلمين الذين يقرأون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره. والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر - عدا الذين ترجموا للعلماء - بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ[3].

---

(١) الذهبي سير أعلام النبلاء ج١٥/٣٧٤.

(٢) أيعيد التاريخ نفسه محمد العبدة ص٣٩.

(٣) المصدر السابق ص٤٠.

وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق أو بالفكر الشيعي، أو بذلت لهم أموال لطمس الحقائق التي لابد من بيانها للأجيال الصاعدة لتعرف عدوها من صديقها، ولتعرف أن الافكار لاتموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن هؤلاء الملاعين من أعدء الإسلام لايزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة البيضاء الناصعة التي تلقفتها جموع أهل السنة والجماعة من الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الغر الميامين الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

المبحث الثامن

موقف علماء أهل السنة وأساليب المقاومة

لقد قاوم علماء أهل السنة المد العبيدي الرافضي بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل للسلاح ضد الطغاة الظالمين وتمحورت طرقهم في عدة أساليب منها: -

١- صمود العلماء والفقهاء ضد أعمال العبيديين وتحملهم للأذى والسجن والقتل مما ساهم في تثبيت عوام المسلمين على عقيدة أهل السنة وقد عمل العبيديون على إخلاء الساحة من العلماء بالترغيب وضمهم في دعوتهم أو بالترهيب حتى يسقط العامة.

٢- قاطع العلماء جميع مؤسسات الدولة العبيدية فلا يختصمون إلى قضائهم، ولا يصلون وراء أئمتهم، ولا يأتون مهنئين، ولا معزّيين ولا يتوارثون معهم، ولا يصلّون على موتاهم ولا يناكحونهم[١].

وبرز في هذا العمل الجليل العلامة الفقيه أبو يوسف جلبة بن حمود بن عبدالرحمن الذي قاطع العبيديين علانية في أول خطبة لبني عبيد في جامع القيروان فعندما سمع ما لايجوز سماعه قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى إلى آخر باب في الجامع - جامع القيروان والناس ينظرون اليه حتى خرج من الباب وهو يقول: قطعوها قطعهم الله. فمن حينئذ ترك العلماء

---

(١) انظر مدرسة أهل الحديث في القيروان ج١/٧٨.

حضور جمعتهم وهو أول من نبّه على ذلك[1].

٣- حصن علماء أهل السنة أهل الشمال الإفريقي بالفتاوي التي أوضحت كفر بني عبيد، وانهم ليسو من أهل القبلة، كما كفروا من دخل في دعوتهم راضياً، ومن خطب لهم في دعوتهم. وقد انتشرت هذه الفتاوى، وعرفها الخاصّ والعامّ، فكانت حاجزاً منيعاً بين العوامّ وبين التردي في دعوة الرّافضة[2] ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين حصنوا الأمة بمنهج أهل السنة والجماعة في الشمال الإفريقي في تلك الفترة الحرجة الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله والذي رأى أن الخوارج من أهل القبلة فاجتهد في الوقوف معهم ضد الكفرة العبيديين.

قال الشيخ الفقيه أبوبكر بن عبدالرحمن الخولاني: (خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي -رحمه الله تعالى- مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عدوّ الله مع أبي يزيد فكان أبو إسحاق يقول - ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة - يريد عسكر بني عدوّ الله - فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من (هو) على غير القبلة - وهم بنو عدوّ الله - فإن ظفرنا (بهم) لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عزّ وجلّ يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنّا).

والذين خرجوا معه من الفقهاء والعبّاد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبدالملك مروان بن نصروان، وأبو إسحاق السبائي، وأبو الفضل المسمّى،

---

(١) انظر رياض النفوس للمالكي ج٢/٤٣.

(٢) المصدر السابق ج٢/٣٤٠.

وأبو سليمان ربيع القطان[1].

وكان ربيع القطـان أول مـن شـرع فـي الدعـوى إلـى الجهـاد ضـد العبيديين وندّب الناس وحضهم عليه.

ولما حضرت صلاة الجمعة طلع (الإمام) على المنبر، وهو أحمد بن محمد ابن أبي الوليد وخطب خطبة أبلغ فيها، وحرض النـاس علـى الجهاد وأعلمهم بما (لهم) فيه من الثواب، وتلا هذه الآيـة: ﴿لايسـتوي القـاعدون مـن المؤمنين غير أولي الضرر﴾.

يا أيها الناس جاهدوا مـن كفر (باللـه) وزعـم أنـه رب مـن دون اللـه تعـالى وغيّر أحكام الله عزّ وجلّ وسبّ نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه.

فبكى الناس بكاء شـديداً، وقـال فـي خطبتـه اللهـمّ إن هـذا القرمطـي الكـافر المعروف بابن عبيدالله المدّعي الربوبية من دون اللـه، جـاحداً لنعمـك، كـافراً بربوبيتك طاعناً على أنبيائك ورسلك، مكذباً لمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبيك وخيرتك من خلقك، ساباً لأصحاب نبيك وأزواج نبيك، أمهات المؤمنين، سافكاً لدماء أمته، منتهكاً لمحارم أهل ملته، افتراء عليك، واغـتراراً بحلمـك اللهمَّ فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويـلاً، واغضـب عليـه بكـرة وأصيـلاً، واصله جهنّم وساءت مصيراً، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين، وأحـاديث في الغابرين، وأهلك اللهـم شـيعته، وشـتّت كلمتـه، وفـرّق جماعتـه، واكسـر شوكته، واشف صدور قوم مؤمنين ونـزل، فصلـى الجمعـة ركعتيـن وسـلّم، وقال: ألا إن الخروج غداً يوم السبت إن شاء الله[2].

---

(١) رياض النفوس ج٢/٣٤٣.

(٢) المصدر السابق ج٢/٣٤٣.

وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب وفي عنقه المصحف وحوله جمع من الناس من أهل القيروان متأهبون معدّون لجهاد أعداء الله، وعليهم آلة الحرب فنظر إليهم القطان، فسر بهم وقال: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك، وإعزاز دينك، يارب بأي عمل وبأي سبب وصلت إلى هذا ؟ ثم أخذ في البكاء حتى جرت دموعه على لحيته، ثم قال لهم: لو رآكم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لسُر بكم وقال في موطن آخر بعد أن أنصت الناس: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾، ثم قال ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشوهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾.

ثم أشار بيده وقال: اذكروا الله يذكركم، فكبّر الناس، ومشى حتى بلغ الجامع ودخل في قتال أعداء الله حتى قتل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مقبلاً غير مدبر[1] واستشهد معه فضلاء وأئمة وعبادّ صالحون.

٤- قاطع العلماء من استجاب وداهن العبيديين من الفقهاء وإن لم يدخل في دعوتهم، ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبي القاسم البَرَاذِعِي[2].

٥- فتح العلماء والفقهاء بيوتهم للناس لفضح معتقدات الباطنية العبيدية وكان أبو إسحاق السّبائي يفتح داره ويأخذ في ذم العبيديين والتحذير منهم وكان يكثر من ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم لانتشار أمر العبيديين وكانت داره

---

(١) رياض النفوس ج٢/٣٤٤.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان ج١/٧٨.

كالمسجد لكثرة من يقصدها من الطلبة وكذلك أحمد بن نصر الهواري وأحمد ابن يزيد الدّباغ واضطروا لذلك بعد منعهم العبيديون من التدريس في المساجد واجتهد العلماء سراً في تعميق عقائد أهل السنة وأصولهم وفقههم في قلوب أهل الشمال الإفريقي[1].

وهكذا الدعاة الربانيون والفقهاء العاملون مهما ضيق الطغاة والظلمة العتاة فإنهم لابد أن يجدوا سبيلاً لتعليم الناس ودعوتهم إلى الرشاد.

٦- اجتهد علماء أهل السنة في غرس منهج أهل السنة في أبناء الكتاميين والصنهاجيين والبرابرة الموالين للعبيديين، وذلك ما قام به العلامة أبو إسحاق الجبنياني وغيره فإنهم كانوا يعلمون الأولاد الصغار أبناء حملة الدعوة العبيدية بحيل لطيفة وكانوا لايأخذون منهم أجراً، ترغيباً لهم في الإقبال عليهم، فكان مَنْ علّمهم أبو إسحاق الجبنياني فيما بعد من أهل السنة والجماعة[2].

ويظهر من هذا أن الاهتمام بأبناء السياسيين والمفكرين العلمانيين ووزراء الدول ومسؤولي وموظفي الدولة في كل قطر ضرورة دعوية شرعية وحركية نحو إقامة شرع الله، والتمكين لدينه، وأما العداء وقطع الطرق والوسائل للوصول إلى أوكار العلمانيين ونزع أبنائهم من صولة الشياطين فأمر لايليق بأصحاب الدعوة من أهل السنة والجماعة.

٧- ومن وسائل علماء السنة في الذب عن عقائد السلف وسيلة المناظرة والجدل وإفحام الخصم أمام عوام الناس وممن سجلت لنا كتب التاريخ مآثره النيرة في هذا المضمار العلامة الفقيه العالم الرباني أبوبكر القمودي الذي ناظر أبا العباس الشيعي مناظرة أفحمه فيها[3].

---

(١) انظر مدرسة الحديث ج٢/٧٩.

(٢) المصدر السابق ج٢/٨٠.

(٣) المصدر السابق ج٢/٨٠.

وإبراهيم بن محمد الضبّي وكان رجلاً صالحاً فقيهاً بارعاً في العلم وقتله بنو عبيد ظلماً وزوراً.

وبرز في المناظرة أبو محمد عبدالله بـن التّبـان إلا أن أبـا عثمـان سـعيد بـن محمد الحداد كان أقدرهم في هذا الباب فقد كانت له: (مقامـات كريمـة ومواقـف محمودة في الدّفاع عن الإسلام والذّب عن السنة) .

أشهر مناظرات الإمام أبو عثمان سعيد بن الحداد

دعاه عبيدالله المهدي وبين له عبيدالله حديث " غدير خُم ": (من كنت مـولاه فعليٌّ مولاه) . وهو حديث صحيح فعطف عبيدالله " لعنة الله عليه " فقال لأبـي عثمان فما للناس لايكونون عبيدنا ؟ فقال له أبو عثمان أعز اللـه السـيد لـم يـرد ولاية الرّق، وإنما أراد ولاية في الدين، قال: فقال الله عز وجـل: ﴿مـا كـان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقـول للنـاس كونـوا عبـاداً لـي مـن دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمون الكتـاب وبمـا كنتـم تدرسـون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتـم مسـلمون﴾ فما لم يجعله الله عز وجل لنبي لم يجعله لغير نبي وعليّ لـم يكـن نبيـاً، وإنمـا كان وزير النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال عبيدالله له: انصرف لا ينـالك أحد) ، ويذكر أن أبا عبدالله الشيعي قال له يوماً: القرآن يقرّ أن محمـداً ليـس بخاتم النبيين.

فقال له: في قوله: (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

فخاتم النبيين ليس رسول الله.

فقال له سعد: هذه الـواو ليسـت مـن واوات الابتـداء وإنمـا هـي مـن واوات

العطف كقوله عز وجل: ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ فهل (من) أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل ؟ وتكلم (عنده) يوماً فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح فمنعه أبو عبدالله من ذلك ثم عطف على أبي عثمان فقال له: ياشيخ لا تغضب أتدري إذا غضب هذا (الشيخ) كم يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف.

فقال أبو عثمان: ولكني (أنا) يغضب لغضبي (الله) الواحد القهار (الذي أهلك عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً)[1]، وقد جمع الله للشيخ سعد الحداد جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان وصواب المعاني وكان عالماً باللغة والنحو وإذا لحن في لفظه استغفر الله عز وجل، وكان إذا تكلف الشعر أجاده.

وذات مرة خرج لمناظرة الشيعي "أبو عبدالله الشيعي" فخرج معه أهله وولده وهم يبكون فقال لهم لا تفعلوا لايكون إلا خيراً، حسبي من له خرجت وعن دينه ذببت.

فلما دخل على الشيعي في قصر إبراهيم بن أحمد فكان حوله جماعة من أصحابه وجماعة مما ينسب اليهم العلم سلم ثم جلس فقال أبو عبدالله الشيعي لإبراهيم بن يونس - وقد قيل له إن هذا الشيخ كان قاضياً على هذه المدينة - بأي شيء كنت تقضي ؟

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسنة.

فقال له أبو عبدالله: فما السنة ؟

---

(١) انظر رياض النفوس ج٢/٦٠.

فقال (له) إبراهيم: السنّة السنّة.

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله " السنّة. . السنّة "

قلت لأبي عبدالله: المجلس مشترك أو خاص ؟

فقال: مشترك.

فقال: أبو عثمان: أصل السنّة في كلام العرب !

المثال الذي يتمثل عليه، قال الشاعر:

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرَ مُقْرِفَةٍ   مأسَاءَ لَيْسَ بها خَالُ ولانَدَبُ

أي صورة وجه ومثاله.

والسنة محصورة في ثلاث: الائتمار بما أمر الله به رسوله – صلى الله عليه وسلم – والإنتهاء عما نهى عنه والائتساء "به فيما فعل".

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وجاءت به السنة من طرق؟

فقلت له: أنْظرُ إلى أصح الخبرين نقلاً فآخذ بأصحهما، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين ويكون الأمر في ذلك كشهودٍ عدولٍ اختلفوا في شهادة، فلابد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي: فلو استووا في الثبات ؟

فقلت له يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً.

قال: فمن أين قلتم بالقياس ؟

فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل.

قال: فأين تجد ذلك ؟

قلت: قال الله عز وجل " في كتابه العزيز ": ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا

الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم ﴾.

فالصيد معلومةٌ عينُه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد (المعلومة) عينه ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل مالم ينص ذكر عينه: بالقياس والاجتهاد، ومنه قول الله عز وجل: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فلم يكله إلى حاكم واحد حتى جعلهما اثنين: ليقيسا ويجتهدا فقال أبو عبدالله الشيعي: ومن ذوا عدل ؟ وأومأ أن " ذوا عدل " إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية.

قال: فقلت: هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل: ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم..﴾ والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف (أبو عبدالله الشيعي) على موسى القطان فقال له أين وجدتم حدّ الخمر في كتاب الله تعالى؟.

فقال له موسى: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: (من شربها فاضربوه بالأردية. ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي، ثم إن عاد فاضربوه بالجريد) .

فقال له أبو عبدالله على النكير منه: أين هذا ؟ اقول لك أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى، تقول اضربوه بالأردية وبالأيدي ثم بالجريد؟

قال أبو عثمان: فقلت له: إنما حدّ قياساً على حدّ القاذف (لأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هَذَى وإذا هَذَى افترى، فوجب عليه مايؤول أمره إليه أمره

وهو حدُّ القاذف) [1].

فقال لموسى القطان: أولم يقل النبي - صلى الله عليه وسلم - (أقضاكم علي) فساق له موسى تمام نص الحديث وهو: (.. وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ، وأرأفكم أبوبكر، وأشدكم في دين الله عمر) رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي، وكيف يكون أشدهم في دين الله وقد هرب بالراية يوم حنين ؟

فقال له موسى: ما سمعنا بهذا ولا نعرفه.

قال أبو عثمان: فقلت له: تحيّز إلى فئة كما أنزل الله تعالى قال الله عز وجل: ﴿إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة﴾.

(فمن تحيز إلى فئة) كما أمر الله عز وجل فليس بفار.

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال: أتسمع ما قال الشيخ، قال: انحاز إلى فئة كما أمر الله سبحانه.

فقال مجيباً - وهو يشير بيده - وأي فئة أكثر من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان حاضراً ولم يتحيز وكأنه تخافت في كلامه ويسمع من يليه.

فقلت: جاء عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ("عمر فئة " فمن تحيّز إلى عمر فقد تحيّز إلى فئة). فسكت الشيعي[2].

وسأل أبو عبدالله الشيعي أبا عثمان الحداد فقال: أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو

---

(١) انظر رياض النفوس ج٢/٧٩.

(٢) المصدر السابق ج٢/٨٠.

قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ انقلاب أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -.

فقال له أبو عثمان: (لا)، لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم لأن معنى (أفإن مات) : استفهام ومعنى (انقلبتم): أفتنقلبون، والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر، وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لاتنقلبوا على أعقابكم.

فقال له: فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيراً يكون لهذا دليلاً ؟

فقال له: نعم. قول الله عز وجل: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾، أي إنك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكان لفظ الاستفهام من ذلك مراداً به التقرير: (بأنهم لا يخلدون)[1].

وهكذا كان أبو عثمان سعد الحداد في دفاعه ومناظرته لأجل نصر عقائد أهل السنة والجماعة.

ولما توفي رثاه الشعراء فقال فيه سهل بن إبراهيم الورّاق:

وقالوا قضى نحبا وذاق منيّة
فيالك من خطب يحلّ عُرى الصبر

وكم مارق عادى سعيدا وسبّه
وضاق به ذرعاً وبداه بالهجر

يودّ بقلب ذاب همّا وغصّة
لو أن أبا عثمان في ظُلَم القبر

وانّ امْرَءاً منكم تمنّى وفاته
وليس له عذر ففي واسع العذر

(١) انظر رياض النفوس ج٢/٨٣.

فليت الذي أمسى شجى في حلوقهم

يمدّ لــه حبـــل الحياة إلى الحشر

أليس لسان المسلمين وسيفهــــــم

إذا كادهم أهــــل الضلال والكفر

أليس هلال الأرض بل شمس دجنها

وبدر دجاهـا حين أمسيت بلا بدر

يجيب وما غاصت دقائق فكــــــره

جواباً عتيـــداً في أدق من السحر(١)

هذه بعض الأساليب والطرق والمناظرات التي قام بها علماء أهل السـنة فـي الذود والدفاع عن عقائد المسلمين فعليهم من الله الرحمـة والرضـوان علـى مـا أبلوا وأقاموا به من جهاد ودعوة وفداء.

٨- قام شعراء أهل السنة بدورمجيد، وجهاد حميد فـي الدفـاع عـن الإسـلام والهجوم على بني عبيد بالسنان والقوافي التـي كـانت علـى بنـي عبيـد أشـد مـن السيوف القواطع، وتَبَوّأ مركز الصدارة في هذا الباب الشاعر المجيد أبو القاسـم الفزاري، ومن أشهر ما قال قصيدته الرائية التـي انتشـرت فـي الآفـاق والبلـدان التي قال فيها:

عجبت لفتنة أعمـــت وعَمّـتْ

يقوم بها دعـــــيّ أو كفور

تزلزلت المدائـــن والبــــوادي

لها وتَلَوَّنَت منهــــا الدهور

---

(١) انظر رياض النفوس ج٢/١١٥.

وضاقت كل أرض ذات عرض

ولم تغن المعاقــل والقصور

فنجّي القيروان وساكنيهــــــا

إله دافعٌ عنهــــا قديـــر

أحاط بأهلها علماً وخُبــــــراً

وميزا ما أكنته الصـــــدور

وجلّلهم بعافية وأمــــــــن

وأسبل فوقها ستر ستيــــر

وأثبت جِلة العلماء فيهــــا

بحار لاتعد لابحـــــــورُ

ومنها سادة العلماء قِدْمـــا

إذا عُدّوا، وليس لهم نظيـرُ

وفيها القوم عبّاد خيــــارا

فقد طاب الأوائل والأخيـــر

همّ افتكّوا سبايا كـــل أرض

وفادوا ما استبد به المغيـــر

كفيناهم عظائمهــــا جميعاً

فزالت عنهم تلك الشـــرور

وسكنّا قلوباً خافقـــــات

أمات عروقها ضر ضـــريرُ

وأوينا وآسينا وكنـــــا

لهم أهلاً وأكثرهم شطيـــر

فبـــــات طعامنا لهم طعاماً

هنـــاك ودُورنـا للقـــوم دورُ

وكان لنـــا ثـواب اللـه ذُخراً

وقام بشكرنـــا منهـم شكـــور

ولولا القيـــــروان وساكنوها

لغاب طعامهـم والمخ ريـــــرُ[1]

ثم مضى في القصيدة إلى أن قال:

وليس لنا كما لهم حصـــــون

ولاجبـــــل أعاليـــه وعــــورُ

ولاسور أحاط بنا ولكــــــن

لنـــا من حفظ رب العرش سُورُ

ولا نأوي إلى بحر وإنّــــــا

إذا قضــــى القضا تُنحَى البحُورُ

ولكنّا إلى القرآن نـــــأوى

وفي أيماننــــــا البيض الذكور

عقائق كالبوارق مرهفـــات

بها تحمى الحرائـــــم والثغور

وسُمر في أعاليهنّ شهـــب

بها ظمــــأ، مواردها النّحوُرُ

---

(١) انظر رياض النفوس ج٤٩٣/٢.

إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمـــن
نُحـب إذا تشعثـــتِ الأُمـــورُ

رسول الله والصديق حبـــاً
به تُرجَـــى السعـــادة والحبورُ

وبعدهما نحبّ القوم طُــرًّا
وما اختلفوا فربهـــم غَفُـــورُ

ألا بأبي وخالصتي وأمـــي
محمـد البشيـــر لنـــا النذيـــرُ

سأهدي ما حييتُ له ثنـــاء
مع الركبــــان ينجد أو يغور[1]

(١) انظر رياض النفوس ج٢/٤٩٤.

الفصل الثالث

الدولة الصنهاجية

استمال خلفاء الدولة العبيدية القبائل البربرية الصنهاجية واستبدلوها بدلاً من القبائل الكتامية وأسندوا إليها الأمور المهمة في الدولة وارتفع نجم الصنهاجيين في زمن عائلة بني زيري الصنّهاجية التي استطاعت أن تثخن في ثورة أبي يزيد الخارجي، فأهدى العبيديون للصنهاجيين حكم إفريقية والمغرب، ومؤسس الدولة الصنهاجية هو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي (٣٦٢ - ٣٧٣هـ) الذي افتتح سنوات حكمه بقمع الثائرين وتمهيد البلاد.

المبحث الأول

أبو الفتوح يوسف بُلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي (٣٦٢ - ٣٧٣هـ / ٩٧٢ - ٩٨٣م)

اصبح يوسف بلكيني بن زيري والياً أو أميراً لكل بلاد إفريقية وهو أول حاكم لبلاد المغرب من أصل بربري بعد الفتح الإسلامي وكان متفانياً في خدمة العبيديين وتوسيع أملاكهم واشتد الصراع العنيف بين قبائل صنهاجة وقبائل

زناتة، واستعمل الحاكم الصنهاجي أبو الفتوح القوة والعنف والشدة للقضاء على سيادة قبائل زناتة. واستطاعت الدولة الأموية في الأندلس أن تستفيد من هذا الصراع وتوجه ضربة ماكرة للدولة العبيدية فدعمت قبائل زناتة بكل ما تملك حتى استطاعت أن تقف في وجه الصنهاجيين التابعين للعبيديين وكانت سياسة الصنهاجيين مبنية على العنف والقوة مع الزناتيين فلم يسعوا لكسب ودهم أو مهادنتهم واستغلت الدولة الأموية هذا الصراع حتى فصلت المغرب الأقصى عن سيادة بني زيري[1].

وأظهر الأمير بلكين نشاطاً واسعاً وعملاً دؤوباً وكان محافظاً على تبعيته للعبيديين وولائه للمذهب الإسماعيلي الباطني، إلا أنه لم يتشدد هو والأمراء الذين جاؤوا بعده بمطالبة الناس بالتشييع، فانفسح المجال نسبياً أمام علماء أهل السنة لنشر السنة وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد والكتاتيب شيئاً فشيئاً، غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر والدّعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء وأسهمت في إيجاد هوة عميقة بينهم وبين حكّام بني زيري، فمضوا في محاربة هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية، والتف أهل الشمال الإفريقي حول علمائهم، وواصلوا مقاطعة الدولة، غير أن هؤلاء الحكام لم يستطيعوا الإعلان بموافقة علماء أهل السنة خوفاً على سلطانهم، وأحس أهل القيروان بذلك فراح علماؤهم يعملون جاهدين على نشر السنة وآراء السلف، فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم في القيروان من جديد،

---

(١) موسوعة المغرب العربي ج٢/٢٤ - ٣٠.

وكثرت المؤلفات في بيان دين الإسلام الصحيح وكان التخلص النهائي من أتباع العُبيديين، وانتصار أهل السنة على الروافض في الشمال الإفريقي على عهد الأمير السني والسيف القاطع والطود المنيف الأمير المعز بن باديس.

المبحث الثاني

المعز بن باديس الصنهاجي
(٤٠٦ - ٤٤٩هـ)

قال عنه الذهبي: (صاحب إفريقية، المعز بن باديس بن منصور بن بُلُكِّين ابن زيري ابن منادٍ الحميريّ، الصنهاجي، المغربي، شرف الدولة ابنُ أمير المغرب) [١].

نودي به أميراً يوم السبت الثالث من ذي الحجة سنة ٤٠٦ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام[٢].

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة وأثروا في بعض الوزراء والأمراء - الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة.

وأخص بالذكر العلامة أبو الحسن الزَّجال الذي اجتهد على الأمير المعز بن باديس في تربيته على منهج أهل السنة والجماعة وأعطت هذه التربية ثمارها بعد ماتولى المعز إفريقية وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الذين كانت الدولة دولتهم وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٨/١٤٠.

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٨٦.

ودين وعقيدة سَلَمِيَّةَ ومبغض للمذهب الإسماعيلي الشيعي.

واستطاع أن يزرع التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي.

وهذا درس لنا نحن الدعاة في الاهتمام برجالات الدولة وأبنائهم من أصحاب المناهج العلمانية والبعيدة عن هدي المولى عز وجل. وليكن شعار العاملين في هذا المجال قوله تعالى: ﴿وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا﴾.

وقد وصف المؤرخون المعز بن باديس بأوصاف في غاية الروعة والجمال فقال فيه الذهبي: (وكان ملكاً مهيباً، وسرّياً شجاعاً، عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كَثُرَ بإفريقية فَحَمَلَ أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العُبيدية، وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده، فلم يخفه)[1].

ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الذي هدده فيه وقال له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء، في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم[2].

وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز تدرج في عدائه للإسماعيلية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام ٤٣٥هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١٨/١٤٠.

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا لطاهر الزاوي ص٢٨٩.

ودولته فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الكفرية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأوعز للعامة ولجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه.

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الجليل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء قوافي وأشعاراً في مدح المعز ودونوا تلك البداية فقال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرضٍ   كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا معز الديـــن عش في رفعةٍ

وســـــرور واغتبــاط وَجذل

أنت أرضيت النبي المصطفى

وعتيقـــاً في الملاعين السّفَلْ

وجعلت القتل فيهــــــم سُنة

بأقاصي الأرض في كل الدول[1]

استمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته، وأعلن انضمامه للخلافة

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.

العباسية وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام العبيديين وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وكتب على الآخر: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة والإباضية.

وفي سنة ٤٤٣ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له.

وكان أول من قاد حملة التطهير على الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن[1] المتوفى عام ٤٣٢هـ.

واشتاط الحقد الباطني وتفجرت براكين الغضب في نفوسهم وقرروا الانتقام من قائد أهل السنة، في الشمال الإفريقي ومن أهله الذين فرحوا بعودة بلادهم لحظيرة أهل السنة فانعقد في القاهرة مجلس رافضي باطني إسماعيلي بقيادة الخليفة العبيدي وخرجوا برأي شيطاني مفاده رمي الدولة السنية الصنهاجية الزيرية بقبائل بني سليم وبني هلال، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة، وإن انتصر بنو سليم وبنو هلال يكونوا بذلك انتقموا من عدوهم اللدود المعز بن باديس، وكان الذي تبنى هذه الفكرة الوزير العبيدي أبو محمد الحسن بن علي اليازوري الذي شرع في

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٩٠،٢٩١.

إغراء القبائل العربية المقيمة على ضفاف النيل وأمدهم بالمال والسلاح والكراع وأباح لهم برقة والقيروان وكل ما يكون تحت ايديهم واتصل العبيديون بالمعارضين للمعز وأمدوهم بما يملكون من مال وسلاح وعتاد.

وبدأت حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الروافض العبيديين.

المبحث الثالث

زحف بني هلال وبني سليم وغيرهما
من القبائل إلى الشمال الإفريقي

تمهيد:

كانت قبائل بني هلال وبني سليم تسكن الجزيرة العربية وكانت مضاربها متوزعة حول المدينة النبوية ومكة والطائف ونجد، واستطاع القرامطة أن يستغلوهم في حروبهم ضد الخلافة العباسية والدولة العبيدية، وتأثر بعض زعماء هذه القبائل بأفكار وعقائد القرامطة، ولم يكن تأثيرهم عميقاً وإنما كانت له أسباب اقتصادية ونزعة تمردية على الانقياد للدولة العباسية. وفي قتال القرامطة مع العبيديين لعبت هذه القبائل دوراً بارزاً في الشام وكانت لها شوكة ومنعة وعدة وعتاد.

فاستطاع الأمير العبيدي في مصر أن يجلبهم ويقربهم له بالعطايا والهدايا والأموال، واستجابت لطرح الخليفة العبيدي الذي كان حريصاً على وجود العنصر العربي في دولته، وأعطتهم الدولة العبيدية أراضي خصبة على ضفاف النيل وأعطت القبائل ولائها للدولة العبيدية، وتبنت شعارات الدولة الباطنية لجهلها وبعدها عن فهم حقيقة دينها، وأخلصت للخليفة العبيدي الذي قرر الانتقام من المعز بن باديس بهذه القبائل ذات القوة والشكيمة والمنعة والدراية بالحروب،

وحصوصا أن الدولة العبيدية كانت لاتستطيع إرسال جيوشها بسبب انشغالها بالقرامطة، ومشروعاتها بالشام والمشرق عموماً، ولأن طوائف من جيشها من نفس جنس المغاربة بل من قادتهم من هو من نفس قبيلة المعز بن باديس، ولا سيما أن الدولة أهملت هؤلاء القادة والجنود منذ أيام العزيز الخليفة العبيدي.

وكانت القبائل العربية التي في صعيد مصر -بعضها يرجع للفتح الإسلامي- قد ازدادت بعد تركهم للجزيرة العربية ومجيئهم إلى مصر في زمن العزيز العبيدي.

واشتهرت تلك القبائل في صعيد مصر بفعل القلاقل وإشاعة الاضطراب والفوضى في البلاد، فكانت هذه المرة فرصة ذهبية للتخلص منها والانتقام من عدو الدولة وقهره والتشفي منه.

وينسب للمستنصر قوله: (والله لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة) فدعا العرب وأباح لهم مجاز النيل إلى المغرب، وكانت ممنوعة عنها قبل ذلك، فعبر منهم خلق عظيم[1].

واجتمع الأمير المستنصر العبيدي مع زعماء القبائل العربية ومنّاهم بالمساعدة المالية والمعنوية وأعطاهم خيولاً وسلاحاً وعتاداً ومالاً وكل ما يساعدهم في تحقيق أهدافه الشريرة وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاؤون، وقال لهم: (لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرون بعدها) [2].

وعندما تحركت جموع العرب في ٤٤٢هـ - ١٠٥٠م أرسل الوزير العبيدي الحاقد إلى المعز بن باديس رسالة قائلاً له: (أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً

---

(١) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها د. عبدالمنعم ماجد ص٢٢٣.

(٢) انظر تاريخ الفتح العربي ص٢٩٤.

فحولاً، وحملنا عليهم رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) [1].

فسيطرت هذه القبائل على برقة بدون مقاومة تذكر، وكانت برقة قد تمردت على العبيديين أيام الحاكم، وأعلنت الطاعة للمعز أيام المستنصر، وأحرقت المنابر التي كانت يخطب فيها للعبيديين، وأحرقت راياتهم، وأعلنت دعوة القائم العباسي[2] وواصلت القبائل العربية زحفها إلى طرابلس وضواحي تونس وكان تعداد هذه القبائل المهاجمة على الشمال الإفريقي أربعمائة ألف، ولحقتها أفواجٌ تترى. ويذكر بعض المؤرخين أن العدد الكلي وصل إلى مليون نسمة على مراحل متعددة. وعندما استقرت هذه القبائل في برقة أرسلت أحد شيوخها وهو مؤنس بن يحيى بن مرداس من رياح أحد بطون بني هلال لينزل ضيفاً على المعز، فعجب مؤنس من النعيم والأبهة التي كانت للمعز بن باديس، فأكرمه المعز وأحسن في ضيافته. وعرض عليه المعز أن يتخذ من بني عمه رياح جنداً له، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معللاً ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بما قاله مؤنس.

وقال مؤنس للمعز: إنهم قوم لا طاقة لك بهم.

فقال له المعز: هم دون ذلك، فاعتبرها مؤنس إهانة للعرب. وظن المعز أن مؤنساً لايريد أن يكون لغيره سلطان على قومه، وصارحه بذلك.

فلما رجع مؤنس إلى قومه رغّبهم ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغّبهم في الإسراع بالرحيل، فانسابوا في أرض إفريقية في جموع لايدرك أولها ولا ينتهي آخرها[3].

---

(١) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق ٢٢٤.

(٣) انظر تاريخ الفتح العربي ص٢٩٥.

ومن أشهر القبائل العربية التي زحفت على ملك المعز بن باديس بنو سليم ابن منصور، وبنو هلال بن عامر وهم من مضر وكانت قبائل زغبة والأثبج، وعدي، ورياح من الهلاليين من بني عامر بن صعصعة وبني هاشم بن معاوية ابن بكر، وهذه القبائل مضرية عدنانية.

وقبيلة كهلان وهي قحطانية، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة.

وعندما رحلت بنو رياح والأثبج وبنو عدي إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان، قال لهم مؤنس: ليس هذا برأي والأمر يحتاج إلى تدبير، فقالوا له: وماذا تصنع ؟ فقال: ائتوني ببساط فأتوه به، فبسطه وقال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه ؟ فقالوا: ومن يقدر على ذلك ؟ فقال: أنا، فطوى البساط وأتى طرفه وفتح منه مقدار ذراع ووقف عليه، ثم فتح شيئاً آخر ودخل إليه، وقال: هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب، املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فاتوها فإنكم تملكونها فقال له رافع بن حماد -وهو أحد رؤساء العرب -: صدقت يا مؤنس، والله إنك لشيخ العرب وأميرها، فقد قدمناك على أنفسنا، فلسنا نقطع أمراً دونك) .

وقد اقترعوا على البلاد فخرج لبني سليم شرقيها: برقة وما حولها، وخرج لبني هلال غربيها: طرابلس وقابس، وانضم بنو جشم إلى بني هلال.

وكان في العرب كثير من غير بني هلال وبني سليم من فزارة وأشجع من بطون غطفان، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوزان، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وكلهم مندرجون في بني هلال وفي الأثبج على الخصوص، لأن الرياسة كانت عندهم للأثبج وهلال فأدخلوا فيهم.

وكانت الأثبج من الهلاليين أوفر عدداً، وأكثر بطوناً، وكان التقدم لهم في

حملتهم. وكان منهم الضحاك، وعياض، ومقدم، والعاصم، ولطيف، ودريد، وكرفة، وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم.

وكان لهم القوة، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية[1] ومن أشراف رجالات العرب: حسن بن سرحان، وأخوه بدر، وفضل بن ناهض، وهؤلاء من دريد بن الأثيح.

ومنهم ماضي بن مقرب، وسلامة بن رزق في بني كبير، في بطون كرفة، من الأثيح. وذياب بن غانم، وينسبونه في بني ثور، وموسى بن يحيى، وينسبونه في مرداس رياح، لا مرداس سليم. وهو من بني صقر، بطن من مرداس رياح. ومنهم زيد بن زيدان، وينسبونه في الضحاك، وفارس بن أبي الغيث، وأخوه عامر، والفضل بن أبي علي، ونسبهم في مرداس وكل هؤلاء يذكرون في أشعارهم[2].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٢٩٧.

(٢) المصدر السابق ص٢٩٧.

المبحث الرابع

الصدام المسلح بين المعز بن باديس والقبائل العربية

ذكر ابن الأثير دخول العرب إلى إفريقية في حوادث عام ٤٤٢هـ إلى أن قال: (ثم قدم أمراء العرب إلى المعز بن باديس فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً، فلّما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنّوا الغارات، وقطعوا الطريق، وأفسدوا الزروع، وقطعوا الثمار، وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فحينئذ احتفل المعزُّ، وجمع عساكره، فكانوا ثلاثين ألف فارس، ومثلها رَجّالة، وسار حتى حيل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس (والصحيح أنهم كانوا قدر جيش المعز على قول صاحب موسعة المغرب العربي) فلّما رأتِ العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك، وعظم عليهم، فقال لهم مؤنس بن يحيى: ما هذا يوم فرار ؟ فقالوا: أين نطعُنُ هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر؟ قال في أعينهم. فسمّي ذلك اليوم يوم العين والتحم القتال، واشتدت الحرب، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة، وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم، ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب، فانهزمت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعز، فكثر القتل فيهم، فقتل منهم خلق كثير، وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب، فلم يمكنهم ذلك، واستمرت الهزيمة، وقتل من صنهاجة أمة عظيمة، ودخل المعز

القيروان مهزوماً، على كثرة من معه وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره[1].

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ماتوصف به الحروب من فظاعة القتل وكثرة القتلى، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر في سبيل دحر خصمه والقضاء عليه وقال الشاعر العربي علي ابن رزق الرياحي أبياتاً في هذه المعركة يصف فيها مادار بينهم وبين المعز:

وإن ابن باديس لأحزم مالك
ولكن لعمري مالديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له
ثلاثين ألفاً إن ذا لنكال[2]

ولما كان يوم النحر من هذه السنة ٤٤٢هـ جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس، وهجم على العرب على حين غرة وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولهم وهجمت على جيوش المعز فهزمتهم وأثخنتهم قتلى، ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، وهاجم العرب في منازلهم، واحتدم القتال وتبارز الشجعان فانكسرت شوكة صنهاجة وولت زناتة الأدبار، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله وتناقلته الركبان، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من رجال المعز فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة ثم أقبلت العرب حتى استقرت بمصلى

---

(١) الكامل في التاريخ ج٦/١٥٣.

(٢) تاريخ الفتح العربي ص٢٩٩.

القيروان ووقعت حروب طاحنة مع المعز قتل من المنصورية ورقّادة خلق كثير، فلّما رأى ذلك المعز سمح لهم بدخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء، فلما دخلوا استطالت عليهم العامة، ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامّي وكانت الغلبة للعرب وفي سنة ٤٤٦هـ أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب(١).

بعد أن رتب أمور العاصمة الزيرية الجديدة ونقل لها كافة وظائف الدولة انتقل المعز إلى المهدية ٤٤٩هـ فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه واستولى العرب على القيروان وهدموا حصونها وقصورها وقطعوا الثمار، وخربوا الأنهار، وكانت الوقائع والمعارك والحروب التي خاضها المعز مع العرب درساً قاسياً له، أقنعته بألا طاقة له بالعرب، أيقن أن العبيديين مكروا به مكراً عظيماً وكان من أسباب الهزائم المتلاحقة التي لحقت بالمعز قوة العرب وشجاعتهم، وخذلان جنوده من البرابرة الذين لازالوا يعظمون الخلافة العبيدية حيث خذلوه في أكثر من موقع، وتقريب المعز لعبيده مما أوغر نفوس صنهاجة وزناته عليه.

وعندما استقر المعز في المهدية فوض أمر الدولة وشؤون الحكم لابنه تميم الذي آنس فيه والده حسن التصرف وأصالة الرأي.

وبقي هذا المجاهد العظيم في ضيافة ابنه إلى أن توفاه الله سنة ٤٥٣(٢).

ويشهد التاريخ الإسلامي لهذا القائد الإسلامي البربري أن له الفضل بعد الله في القضاء على عقائد الباطنية الإسماعيلية في الشمال الإفريقي وكان درعاً

---

(١) الكامل في التاريخ ج٦/١٥٤.

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا طاهر الزاوي ص٣٠٠.

حصيناً لمنهج أهل السنة والجماعة ودافع عنها، واحترم علماء أهل السنة وقدمهم في دولته وكلفه ذلك ثمناً باهظاً من قبل أعدائه.

كما يشهد التاريخ للمعز بن باديس وأتباعه من البرابرة أنهم تبنوا منهج أهل السنة والجماعة، وربطوا شمالهم الإفريقي بالخلافة الشرعية العباسية في بغداد ويشهد التاريخ أن المعز أصبح علماً من أعلام المسلمين ورمزاً من رموزهم ودخل تاريخهم من أوسع أبوابه مسجلاً أعمالاً عظيمة ونرجو من الله أن تكون في ميزان حسناته يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وفاة المعز بن باديس وولاية ابن المعز فقال: (في هذه السنة توفي المعز بن باديس، صاحب إفريقية، من مرض أصابه، وهو ضعف الكبد، وكانت مدّة ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة، وقيل ثماني سنوات وستة أشهر.

وكان رقيق القلب، خاشعاً، متجنباً لسفك الدماء إلا في حد، حليماً، يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم، كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرة ألف دينار للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاء هذا المال، فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه، ثم وهبه له، فقيل له: لم أمرت بإخراجه من أوعيته ؟ قال: لئلا يقال لو رآه ما سمحت نفسه به، وكان له شعر حسن.

ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكل حيّ وإن طال المدى هُلُكُ

لاعزُّ مملكة يبقى، ولا ملك

ولىّ المُعزُّ علـى أعقابـــه فَرَمَى

أو كاد يَنهــدُّ من أركانه الفَـــــلَكُ

مضى فقيداً وأبقــى في خزائنـــهِ

هام الملـــوكِ، وما أدراك ما ملكـــوا

ما كان إلا حسامـــاً سلّـــه قَـــدَرٌ

على الذين بغَوا في الأرض وانهمكُوا

كأنه لم يخض للموت بحر وغـــى

خضـرُ البحار، إذا قِيسَتْ به، بركُ

ولم يُجدْ بقَنَاطيــــــر مقنطـــرةٍ

قد أرّخَـتْ باسمه إبريزها السكـــكُ

روحُ المُعز وروحُ الشمس قد قبضا

فانظر بأي ضياء يصعد الفَـــــلكُ[1]

---

(١) تاريخ الفتح العربي ٢١٤.

المبحث الخامس

أبناء وأحفاد المعز

أولاً: - تميم بن المعز

ولد بالمنصورية في الثالث من رجب سنة ٤٢٢هـ. وولاه أبوه على المهدية سنة ٤٤٥هـ، ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز وسار في الناس بسيرة حسنة، وقرب أهل العلم وكان شجاع القلب ذا همة عالية وسياسة ودهاء استطاع أن يرجع المدن التي سلبت من والده، واستمال زعماء العرب بالمال والعطايا، وصاهرهم وامتزج معهم، وجعل منهم جنوداً لدولته بكياسة وفطانة وسياسة نادرة، واستطاع أن يضم مدينة سوسة في عام ٤٥٥هـ بعد أن قضى على منافسه حمّو بن مليك، وعفا عن أهلها وحقن دماءهم بعد أن قضى على المقاومة المسلحة التي واجهته[1].

وفي سنة ٤٥٧هـ أراد الناصر بن علناس الحمادي زعيم الدولة الحمادية احتلال المهدية والقضاء على ملك تميم وجهز جيشه من صنهاجة وزناته وبني هلال، فاستدرج تميم بن المعز القبائل العربية للوقوف بجنبه، وأعطاهم السلاح والمال والعتاد، واستطاع أن يقضي على جيش الناصر، وقتل منهم ٢٤ ألفاً وترك الغنائم والأموال للعرب التي استغنت بذلك وقال تميم: يقبحُ بي أن آخذ

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٦/٢٣٤.

سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك[1].

وفي سنة ٤٨٤هـ ضم تميم مدينة قابس بعد أن تولى أمرها عمرو بن المعز، وكان قبل عمرو رجل يسمى قاضي بن إبراهيم بن بلمونة وكان ضمه لقابس بالجيوش الجرارة فقال له أصحابه: يا مولانا لمّا كان فيها قاضي توانيت عنه وتركته، فلّما وليها أخوك جرّدت إليه العساكر، فقال: لمّا كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا، وأما اليوم وابن المعز بالمهدية، وابن المعز بقابس فهذا ما لايمكن السكوت عليه.

وفي فتحها يقول ابن خطيب سُوسة القصيدة المشهورة التي أولها:

ضَحِكَ الزّمانُ، وكان يُلقَى عابساً
لمّا فتحت بحَدّ سيفك قابِسَا
الله يعلمُ ما حَوَيتَ ثِمارَها
إلا وكان أبوك قبلُ، الغارِسا
من كان في زُرقِ الأسنةِ خاطباً
كانت له قلل البلاد عرائساً
فابشِرْ تميم بن المعزِ بفتكةِ
تركتك من أكناف قابسَ قابسَا
ولّوا، فَكَمْ تركوا هُناك مَصانِعاً
ومقاصراً ومخالداً، ومجالساً

---

(١) الكامل لابن الاثير ج٢/٢٤٣.

فكأنها قلبٌ، وهنّ وســــاوسُ

جاء اليقين، فذاد عنه وساوسا[١]

وفي سنة ٤٩٣هـ استطاع تميم أن يضم مدينة صفاقص وأن ينتزعها بالقوة من حاكمها المتمرد حَمّو بن فلفل البرغواطي[٢]

ويعتبر عصر تميم أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية.

وكان يضرب به المثل بالجود والشجاعة والكرم والعطاء قال فيه ابن كثير: (من خيار الملوك حلماً وكرماً، وإحساناً، ملك ستاً وأربعين سنة وعمَّر، تسعاً وتسعين سنة ترك من البنين أنهد من مائة، ومن البنات ستين بنتاً وملك بعده ولده يحيى، ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:

أصحٌّ وأعلى ما سمعناه في الندا

من الخبـــر المرويّ منذ قديم

أحاديث ترويها السيولُ عن الحيَا

عن البحر عن كف الأمير تميم[٣]

وكان عالماً فاضلاً، وشاعراً رقيق العاطفة ومن شعره:

فإما الملوك في شـــرف وعز

عليّ التـــاج في أعلى السرير

وإما الموتُ بين ظُبا العـــوالي

فَلستُ بخالـــــد أبد الدهور[٤]

---

(١) الكامل في التاريخ ج٦/٣٦٧.

(٢) تاريخ الفتح العربي ص٣٠٢.

(٣) البداية والنهاية ج١٢/١٨١.

(٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٠٢.

وقال ابن الأثير: (كان شهماً شجاعاً، ذكياً، وله معرفة حسنة، وكان حليماً، كثير العفو عن الجرائم العظيمة، وله شعر حسن، فمنه أنه وقعت حرب بين طائفتين من العرب، وهم عديّ، ورياح فقتل رجل من رياح، ثم اصطلحوا، وأهدروا دمه، وكان صُلحهم مما يضرّ به وببلاده، فقال أبياتاً يحرّض على الطلب بدمه، وهي:

متى كانت دماؤكم تُطَـــلُّ
أما فيكم بثــــأرٍ مُستَقِلُّ
أغانمُ ثمّ سالمُ إن فَشِلتُـــم
فما كانـــــت أوائلكم تُذِلُّ
ونِمتم عن طِلابِ الثأر حتى
كـــأنّ العزَّ فيكم مُضمَحِلُّ
وما كسرتُمُ فيه العوالـــــي
ولابيـــض تُفَلُّ، ولاتُسَلُّ

فعمد أخوة المقتول فقتلوا أميراً من عدي، واشتد بينهم القتال، وكثرت القتلى، حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية[1]

ومن أقواله التي صارت مثلاً في إفريقية " أسرار الملوك لاتذاع "[2]

وانطوت صفحة حياته في عام ٥٠١هـ بعد أن عادت للدولة الزيرية هيبتها.

ثانياً: - يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في السادس عشر من ذي الحجة سنة

---

(١) الكامل ج٦/٤٨٥.

(٢) المصدر السابق.

٤٩٧هـ. واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه، وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً فكان موفقاً[١]

ولما استقر في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جربة، وسببها أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار، فحصرها وضيق عليها، فدخلوا تحت حكمه، والتزموا ترك الفساد، وضمنوا صلاح الطريق[٢]

وكان مهتماً بعلم الأخبار وأيام الناس والطب وكان مغرماً بالكيمياء، وحاول ثلاثة من الباطنية قتله فدخلوا عليه زاعمين أنهم لهم دراية بالكيمياء إلا أن الله نجاه منهم.

قال الذهبي: (وقد وقف ليحيى ثلاثة غرباء، وزعموا أنهم يعلمون الكيمياء فأحضرهم ليتفرّج وأخلاهم، وعنده قائد عسكره إبراهيم، والشريف أبو الحسن، فسل أحدهم سكيناً، وضرب المَلِكَ، فما صنع شيئاً ورفسه الملك فدحرجه، ودخل مجلساً وأغلقه، وقتل الآخر الشريف، وشدّ إبراهيم بسيفه عليهم، ودخل المماليك، وقتلوا الثلاثة، وكانوا باطنية، أظن الآمر العُبيدي ندبهم لذلك)[٣].

وكان كثير المطالعة محباً للجهاد فتح حصوناً ماقدر أبوه عليها، وكان رحيماً للضعفاء شفيقاً على الفقراء يطعمهم في الشدائد فيرفق بهم، ويقرب أهل العلم والعقل من نفسه، وساس العرب في بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم، وكان له نظر حسن في علم النجوم، وكان حسن الوجه على جانبيه شامة، أشهل العينين مائلاً في قده إلى الطول دقيق الساقين[٤].

وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه، وخلدوا مديحه في

---

(١) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٠٣.

(٢) انظر التذكار ص٣٩.

(٣) سير وأعلام النبلاء ج١٩/٤١٤.

(٤) وفيات الاعيان ج٦/٢١٤.

دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت ابن عبدالعزيز أمية بن أبي الصلت الشاعر الذي عاش في كنفه بعد أن جاب البلدان وله في يحيى مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، ومن جملة ما قاله من مديحه قصيدة:

فارغب بنفسك إلا عن ندىً ووغـــىً

فالمجدُ أجمع بين البأس والجود

كداب يحيى الذي أحييـــت مواهبـه

مَيْتَ الرجـــاء بإنجاز المواعيد

معطي الصوارم والهيفِ النواعم والـ

جُردِ الصّلادم والبـزل الجلاعيدِ

أشمُّ أشوس مضروبٌ ســــــرادقه

على أشمَّ بفـــرع النجـم معقود

إذا بدا بسرير الملك محتبيـــــــاً

رأيت يوسف في محراب داوود

إلى أن قال:

هذي موارد يحيى غيرُ ناضبــــة

وذا الطريقُ إليهـــا غير مسدود

حكم سيوفَكَ فيما أنـــت طــــالبُهُ

فالسيــوف قضاءٌ غير مردود[1]

وتوفي الأمير يحيى سنة ٥٠٩هـ متأثراً بمرض أصابه بعد الاعتداء عليه من قبل الباطنيين الذين حاولوا قتله ولازمه المرض إلى أن توفي[2] وقال ابن

---

(١) وفيات الاعيان ج٦/٢١٥.

(٢) ابن عذاري ج١/٣٠٦.

الأثير: كانت وفاته يوم عيد الأضحى فجأة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً، وكانت ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وخلّف ثلاثين ولداً، فقال عبدالجبار بن محمد بن حَمديس الصقليّ يرثيه ويهنئ ابنه علياً بالملك.

فقال:

ما أُغمد العضبُ إلاّ جُرّدَ الذَّكَرُ
ولا اختفى قَمَرٌ حتى بدا قَمَرُ

بموت يحيى أميتَ الناسُ كلهُمُ
حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشِروا

إن يُبعَثُوا بسُرور من تملكه
وعينُها من أبيه دمعُها هَمِرُ

شُقّتْ جُيوبُ المعالي بالأسى فبكت
في كل أفقٍ عليه الأنجم الزُّهُرُ

وقَلَّ لابن تميم حزُنُ مادهما
فكلُّ حُزنٍ عظيمٍ فيه مُحتَقَرُ

قام الدليلُ ويحيى لاحياة له
إن المنية لاتبقي ولا تَذَرُ(١)

ثالثاً: - الأمير علي بن يحيى بن تميم بن المعز

ولد يوم ١٥ من صفر سنة ٤٩٩هـ وولاه والده على صفاقس وتولى الحكم

---

(١) الكامل ج٦/٥٢٤.

بعد وفاة والده.

وبعد عامين من حكمه جهز علي، أسطولاً في البحر وأرسله إلى مدينة قابس وضرب عليها حصاراً، وذكر ابن الأثير السبب في ذلك فقال: (وسبب ذلك أن صاحبها رافع بن مكّن الدهماني أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار في البحر، وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته في المداراة، فلما ولي علي الأمر، بعد أبيه، أنف من ذلك وقال: لايكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر بالتجار. فلما خاف رافع أن يمنعه عليّ التجأ إلى اللعين رجّار أن ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتازوا بالمهدية، فحينئذٍ تحقق عليّ اتفاقهما، وكان يكذبه.

فلما جاز أسطول رجّار بالمهدية أخرج عليّ أسطوله في أثره، فوصل إلى قابس، فلما رأى صاحب أسطول الفرنج المسلمين لم يخرج مركبه، فعاد أسطول الفرنج، وبقى أسطول عليّ يحصر رافعاً بقابس مضيقاً عليه ثم عادوا إلى المهدية) [1].

وبعد ذلك أراد رافع أن يحاصر المهدية وجمع شتات الأعراب وجهز جنوداً وزعم أنه يريد الدخول في طاعة الأمير علي إلا أن الأمير لم تنطلي عليه الحيلة وحاربه وكسر شوكة رافع حتى تدخل بعض الأعيان من العرب وغيرهم للصلح بين الطرفين[2].

وشعر الأمير علي بن يحيى بخطورة زعيم صقلية " رجّار " عليه فأصدر أوامره لتجديد الأسطول وإعداد العدة لدحر قوات رجّار البحرية، وكاتب

---

(١) الكامل ج٦/٥٢٤.

(٢) المصدر السابق ج٦/٥٢٤.

المرابطين بمراكش في الاجتماع معهم على الدخول إلى صقلية، فكف رجّار عن شره[1] وتوفي الأمير علي بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، في العشر الأخير من ربيع الآخر، وكانت حروبه وأعماله تدل على علوّ همته، ولما توفي ولي الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه، وقام بأمر دولته صندل الخصيّ لأنه كان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة لا يستطيع أن يستقل بتدبير الملك، فقام صندل بالأمر خير قيام، فلم تطل أيامه حتى توفي، فوقع الخلاف بين أصحابه وقواده، كل منهم يقول أنا المقدم على الجميع، وبيدي الحل والعقد، فلم يزالوا كذلك إلى أن فوّض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز موفق، فصلحت الأمور[2].

رابعاً: - الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم

ولد بسوسة سنة ٥٠٢هـ وتولى بعد وفاة أبيه وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها، وضعفت دولته وأصبحت هدفاً للنصارى الحاقدين، ورأوا أن الفرصة حانت لاحتلال مدن جنوب البحر المتوسط وإذلال المسلمين، واستطاع رجّار الصقلي احتلال طرابلس وبعدها المهدية.

وخرج الحسن بن علي من المهدية وهو يقول: (سلامة المسلمين أحب إلي من الملك والقصر).

واراد الذهاب إلى العبيديين في مصر ثم تنحى عن هذه الفكرة وراسل ابن عمه زعيم الدولة الحمادية في المغرب الأوسط إلا أن ابن عمه حبسه في إقامة جبرية خوفاً من أن يتصل بخليفة الموحدين عبدالمؤمن بن علي واستطاع

---

(١) انظر الكامل ج٦/٥٢٤.

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٨٣،٨٢/٤).

الحسن بن علي أن يتصل بخليفة الموحدين ودخل تحت سلطانه وعملا على تحرير أراضي المسلمين والمدن الساحلية من كل وجود للنصارى راضياً بخلافة الموحدين. وتضاربت الأقوال في سنة وفاته إلا أنه بالتأكيد كانت بعد سنة ٥٥٥هـ أثناء ذهابه لعاصمة الموحدين حيث عاجلته المنية وهو في شد الرحال إليها.

وبسقوط المهدية في قبضة النصارى الحاقدين بقيادة رجّار الصقلي سنة ٥٤٣هـ انتهت دولة بني زيري بعد أن دام ملكها على أرض إفريقية والمغرب الأوسط نحو مائة وثمانين عاماً "١٨٠ سنة" منذ زمن مؤسسها الأول بلكين ٣٦٢هـ إلى الحسن بن علي عام ٥٤٣هـ وقبل الدخول في أسباب سقوط الدولة الزيرية خصوصاً والدولة العبيدية عموماً نبين ما حدث لطرابلس الغرب من هجوم شرس غادر مِن قِبَلِ النصارى وما مر من أحداث في تلك الفترة.

أ- والي طرابلس في زمن الأمير الحسن بن علي الصنهاجي

هو محمد بن خزرون بن خليفة بن وُرّو. ولي طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه شيوخ بني مطروح لما لهم من الزعامة والرئاسة والمكانة والنفوذ في طرابلس، وأسند إليهم رئاسة الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم وخلع يد الطاعة من الحسن بن علي وامتنعوا عن دفع الأموال إليه وأعلنوا طاعتهم للعبيديين في مصر.

ب - رجّار يهاجم طرابلس

وفي سنة ٥٣٧هـ هاجم رجّار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا أسوار المدينة فدافع أهلها عنها دفاعاً مستميتاً واستنجدوا بسكان الضواحي من العرب

وغيرهم فأنجدوهم، ولم يتمكن رجّار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً، وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة، وبقي ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدبر ويرتب وينظم شؤونها ويدين بالطاعة للعبيديين في مصر(١).

ج - المجاعة في طرابلس

في سنة ٥٤٠هـ تعرضت طرابلس لمجاعة كبيرة فاضطر بعض السكان إلى ترك البلاد والجلاء عنها، وكان محمد بن خزرون عنيفاً شديداً على سكان البلاد قاسياً في حكمه ضايق الناس في معيشتهم فضاقوا به ذرعاً وهو لايزداد إلا تعسفاً.

وكان بنو مطروح في مقدمة وجهاء طرابلس ومن زعمائها وكانوا معينين لمحمد بن خزرون، ولكنهم نقموا عليه أعماله وحاولوا أن يخففوا من وطأته فجمعوا الناس وخرجوا عليه وأبعدوه هو وشيعته من المدينة وكان رجّار حاكم صقلية يتابع هذا التنازع، فاستغل الظروف، واستفاد من وقوع كارثة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة، فأراد الانتقام لهزيمته الأولى فأرسل جيوشه وأساطيله وهاجم بهم طرابلس فدخلها بدون مقاومة واحتلها بدون متاعب عام ٥٤١هـ.

وبانتهاء محمد بن خزرون انتهى حكم بني خزرون في طرابلس.

وأصبح قائد أسطول رجّار "جرجي بن مخائيل الأنطاكي" الذي تعلم في الشام ورافق تميم بن المعز حاكماً على طرابلس وطلب منهم الأمان فأمنهم، وشرط لهم ألا يلزمهم بما يخالف دينهم.

وهذه هي المرة الأولى التي يستولي فيها النصارى الحاقدين على طرابلس

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٠٥.

أما المحاولة التي كانت سنة ٥٣٧هـ فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها[1].

وحاول رجّار أن يسيطر على أهل طرابلس بأهلها فأسند لهم رجّار ولاية طرابلس، وعين يوسف بن زيري قاضياً، وكنيته أبو الحجاج وحكم رافع بن مطروح اثنتي عشرة سنة وهو يدين لرجّار بالطاعة.

وفي تصوري أن رضاه بالعمل تحت راية النصارى مضطراً إليها اضطراراً خارجاً عن إرادته، واجتهد الشيخ في تقليل المضار ودفع عن المسلمين ما أمكنه من ضرر مع انقياده لرجّار في صقلية.

ولما هلك رجّار سنة ٥٤٨هـ بعد أن ملك مابين المهدية وطرابلس ما عدا قابس خلفه في الحكم ابنه غاليالم وسمى نفسه رجّار الثاني، فقويت شوكته في الشمال الإفريقي، ودخلت قابس في طاعته وكان شديد الوطأة على المسلمين، فملوا حكمه، وسئمت نفوسهم تحت حكمه وتشجعوا مع ظهور دعوة الموحدين في إفريقية وقربهم من المهدية.

وبدأت الثورة المسلحة ضد غاليالم في صفاقس، وانتشرت في البلاد الساحلية، ووصلت إلى نواحي طرابلس وقد خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة فأحدث فتنة بين الأهالي لتلهيهم عن التفكير في الثورة وعن الاتصال بالموحدين وطلب من أهالي طرابلس أن يشتموا الموحدين فامتنع أهل طرابلس ولجؤوا إلى القاضي أبي الحجاج، وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن طلبه هذا يخالف الدين وتمكن القاضي من إقناعه فأعفاهم من طعن الموحدين وشتمهم.

ودفعت معاملة غاليالم – الطرابلسيين للثورة ضده بسبب ظلمه وتعسفه فقاد

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٠٧.

رافع بن مطروح الثورة ضده وتحررت طرابلس عام ٥٥٣هـ من حكم النصارى، وأصبح رافع بن مطروح حاكماً على طرابلس لما له من جاه ومكانة عند أهل طرابلس، ومع امتداد دعوة الموحدين في الشمال الإفريقي دخلت طرابلس في طاعة عبدالمؤمن بن علي زعيم الموحدين، وكان ذلك في عام الخامس سنة ٥٥٥هـ[1].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٠٧.

المبحث السادس

أسباب سقوط الدولة الزيرية في الشمال الإفريقي

١- عجز الدولة الزيرية على توحيد الشمال الإفريقي كله، لظهور بعض القبائل المناهضة للصنهاجيين مثل قبائل زناتة التي تحالفت مع الدولة الأموية في الأندلس.

٢- الانقسام الداخلي الذي حدث للعائلة الزيرية وترتب على ذلك ظهور الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

٣- الصراع المسلح الذي استمر عشرات السنين بين الصنهاجيين والزناتيين والكتاميين مما أضعف الدولة أمام التحديات الخارجية.

٤- المكر الباطني بالدولة الزيرية وتمثل ذلك في محاولة اغتيال سلاطينهم وإرسال قبائل بني هلال وبني سليم للانتقام من المعز بن باديس سلطان الدولة الزيرية في زمانه.

٥- انفصال بعض المدن عن عاصمة الدولة الزيرية بسبب الزحف العربي المدعوم بالحقد الباطني ومحاولة سلاطين الدولة الزيرية إرجاع هذه المدن المنفصلة مما كلف الدولة الزيرية جهداً ووقتاً ودماءً وأرواحاً من أجل إرجاع تونس وتخليصها من بني خراسان وصفاقس وتخليصها من البراغواطي وفاس وتخليصها من بني جامع.

٦- الغزو الصليبي القادم من وراء البحر الأبيض المتوسط وصراع الدولة

الزيرية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوربا، بدأ ذلك الغزو النصراني الحاقد بعد أن استولت قوات النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤هـ فاحلتوا جزيرة جربه عام ٥٢٩هـ، وبسطوا سلطانهم على طرابلس عام ٥٣٧هـ ثم عادوا واحتلوها عام ٥٤١هـ وزحفوا على فاس ٥٤٢هـ، وأنهكت الصراعات الداخلية التي حدثت بين العرب وزناته وبني حماد قوة الدولة الزيرية مما جعل الحملات الصليبية تستسهل مهمتها في القضاء على الدولة الصنهاجية الزيرية وتم لها ذلك بسقوط المهدية عام ٥٤٣هـ.

٧- هجرة العلماء والفقهاء من القيروان والمهدية إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى.

٨- تعرضت التجارة والصناعة والزراعة لهزات عنيفة نتيجة الاضطرابات والصراعات الداخلية مما جعل الناس تهاجر إلى الأندلس وصقلية والمشرق الإسلامي.

حكام بني زيري في القيروان والمهدية

١- بلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي ٣٦٢-٣٧٤هـ، ٩٧٣-٩٨٤م

٢- المنصور بن بلكين بن زيري ٣٧٤-٣٨٦هـ، ٩٨٤-٩٩٦م

٣- باديس بن المنصور بن بلكين ٣٨٦-٤٠٦هـ، ٩٩٦-١٠١٥م

٤- المعز بن باديس بن منصور ٤٠٦-٤٥٣هـ، ١٠١٥-١٠٦٢م

٥- تميم بن المعز بن باديس ٤٥٣-٥٠١هـ، ١٠٦٢-١١٠٧م

٦- يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ٥٠١- ٥٠٩هـ، ١١٠٧-١١١٦م

٧- علي بن يحيى بن تميم ٥٠٩-٥١٥هـ، ١١١٦-١١٢١م

٨- الحسن بن علي بن يحيى ٥١٥- ٥٤٣هـ، ١١٢١-١١٤٨م

الفصل الرابع

المبحث الأول

من أسباب سقوط الدولة العبيدية واندحار المد الباطني والتغلغل النصراني الصليبي

١- مقاومة المغاربة الباسلة للمد العبيدي الباطني بقيادة العلماء والفقهاء والمحدثين مما جعل زعماء الدولة العبيدية يقررون نقل ملكهم وزعامتهم إلى مصر.

٢- ظهور القائد الإسلامي المغربي البربري المعز بن باديس الذي أعلن انفصاله السياسي والعسكري والعقدي عن الدولة العبيدية في مصر.

٣- صراع الدولة العبيدية مع القرامطة في الشام من أجل الأطماع الدنيوية الأرضية.

٤- استعانة العبيديين بالنصارى الأوربيين للوقوف ضد تقدم السلاجقة في بلاد الشام ثم غدر النصارى بالعبيديين بعد مجيئهم وخذلانهم للدولة العبيدية في مصر.

٥- رفض المصريين للمذهب العبيدي الباطني والعمل الجاد من قبل العلماء والفقهاء وأبناء الشعب المصري في نخر الدولة العبيدية الباطنية.

٦- رجوع الدولة العباسية إلى التمسك بالكتاب والسنة والدعوة إليها وكانت من أوائل بدايات الرجوع ما قام به الخليفة القادر بالله عام ٤٠٨هـ حيث استتاب فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال والرفض

والمقالات المخالفة للإسلام[1].

وامتثل السلطان محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك واستنّ بسنته في عقوبة المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم كما أحرق كتب الفلسفة[2] وحسر المجاهد محمود الغزنوي المد الباطني الرافضي الإسماعيلي في بلاد الهند وبلاد أفغانستان.

قال فيه ابن كثير في ترجمته: (الملك الكبير، المجاهد الغازي أبو القاسم صاحب بلاد غزنه وما والاها، فتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند، لم يتفق لغيره من الملوك لا قبله ولا بعده، وغنم مغانم كثيرة، وكان مع هذا في غاية الديانة وكراهة المعاصي وأهلها، كان يحب العلماء والمحدثين، ويحب أهل الخير والدين)[3].

وعندما حاول العبيديون في مصر إغراءه بالهدايا كي يقيم الدعاية لهم في بلاده، أحرق كتبهم وهداياهم[4]، وقتل التاهرتي " مندوبهم للدعوة، وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي وقال: كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين[5] واستطاع هذا الملك السني الميمون أن يكسر شوكة الإسماعيلية والمبتدعة في بلاده فجزاه الله خيراً وتوفي هذا الملك المجاهد عام ٤٢١هـ واستمرت دولته في غزنه فترة طويلة، وكان حفيده مثله في سيرته الميمونة واستمر الغزنويون يحكمون الهند بمذهب أهل السنة إلى القرن الثالث عشر الهجري حين تحكم الإنجليز ونقلوا السلطة إلى

---

(١) الكامل ج٩/٣٠٥.

(٢) البداية والنهاية ج١٢/٢٨، ٣٢.

(٣) المصدر السابق ج١٢/٢٨، ٣٢.

(٤) انظر البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢، ٤٣ وأيعيد التاريخ نفسه ص٦٦، ٦٨ والروضتين ص٣١.

(٥) أيعيد التاريخ نفسه ص٦٦.

الهنادكه بعد رحيلهم[١].

٧- ظهر السلاجقة السنيون في بلاد خراسان وامتد نفوذهم إلى عاصمة الخلافة واستطاعوا أن يقضوا على البويهيين عام ٤٤٨هـ وبذلك سقطت دولة البويهيين الشيعية وقضى السلاجقة على فتنة البساسيري الشرير وفي عام ٤٤٨ أزيل ماكان على أبواب المساجد من سب الصحابة، وأمر رئيس الرؤساء بقتل شيخ الروافض أبي عبدالله الجلاب لغلوه في الرفض[٢].

وفي عهد ألب أرسلان زعيم السلاجقة عاد للأمة عزها المفقود، ورجعت لهم الانتصارات الكبيرة على النصارى، وعمل ألب أرسلان على تخليص حلب وديار الشام من الهيمنة العبيدية وإرجاعها للخلافة العباسية، وفي عام ٤٦٢هـ رجعت مكة إلى السيادة العباسية، وانخلعت من التبعية العبيدية، وأعطى السلطان ألب أرسلان لمحمد بن أبي هاشم حاكم مكة ثلاثين ألف دينار[٣].

وفي زمن وزارة نظام الملك " الحسن بن علي " اهتمت الدولة السلجوقية بتولية الأمور القيادية في الدولة للقواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة ونشروا علوم أهل السنة قال المؤرخ أبو شامة: (فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها) [٤].

وهذا الوزير الصالح " نظام الملك " "الحسن بن علي " هو الذي شجع بناء المدارس للطلبة ففي عام ٤٥٩هـ فرغ من عمارة المدرسة النظامية في بغداد،

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ص٦٦.

(٢) البداية والنهاية ج٤٣/١٢.

(٣) أيعيد التاريخ نفسه ص٦٨.

(٤) الروضتين في أخبار الدولتين ٣١.

وأسس المدارس في نيسابور وغيرها من البلدان، وقد سرى هذا الاتجاه في بناء المدارس السنية إلى مصر وهي تحت النفوذ العبيدي الباطني (فقد أنشأ أبو الحسن علي بن السلار وزير الظافر سنة ٥٤٤هـ مدرسة وجعل رياستها للحافظ السلفي، وكانت المدرسة الوحيدة للشافعية في الإسكندرية، كما أنشئت المدرسة العوفية ٥٣٢هـ وعلى رأسها الفقيه المالكي ابن الطاهر بن عوف، ومن أغراض هاتين المدرستين الوقوف في وجه المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني) [1].

قال المؤرخ أبو شامة عن نظام الملك: (كان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحب أهل الدين، وأما صدقاته وأوقافه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة لم تخل بلد منها، حتى جزيرة ابن عمرو التي هي في زاوية من الأرض بني فيها مدرسة كبيرة حسنة، وكان يحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة)[2] قتل رحمه الله بيدي الغدر والخيانة الباطنية قرب نهاوند في اليوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥هـ[3].

٨- نشاط علماء المدرسة الشافعية وعلى رأسهم الإمام الجويني أبو المعالي إمام الحرمين الذي اهتم بمشاكل عصره وكتب كتابه المعروف " غياث الأمم في التياث الظلم " في السياسة الشرعية التي تبحث في مشكلات المسلمين الواقعية. ومن تلاميذ الإمام الجويني النابغين: أبو حامد الغزالي والكيا الهراسي، وقد ألف الغزالي كتابه " إحياء علوم الدين " وفي نيته أن هذا من

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ص٦٩.

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين ج١/٥.

(٣) البداية والنهاية ج١٢ / ١٥٠.

أسباب إصلاح أحوال المسلمين، ولكن يؤخذ على الكتاب حشوه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص غير المعقولة من شطحات الصوفية، والكلام الفاسد من الفلاسفة، ومع ذلك ففي كتابه نظرات إصلاحية من خلال إصلاح النوايا والقلوب، وكانت بحوث الغزالي في النفس البشرية عميقة أثرت تاثيراً كبيراً في واقع المسلمين(١).

وكان قبل الإمام الجويني الإمام الماوردي الذي حاول أن يمهد الطريق لإمام الحرمين فكتب (الأحكام السلطانية) لمعالجة مشكلة الحكم وكتب (أدب الدنيا والدين) لمعالجة مشكلة دقيقة في حياة المسلمين وهي: كيف نجمع بين الدين والدنيا في توازن شرعي.

إن علماء المدرسة الشافعية السنية من أمثال أبي إسحاق الشيرازي وتلاميذهم ساهموا في اندحار الرفض والمذاهب الباطنية(٢).

٩- ظهور العلماء العاملين المخلصين المنتسبين للمدرسة الحنبلية في مدارس بغداد الذين تربى علماء الأمة وطلاب العلم على أيديهم كالشيخ أبي الوفاء بن عقيل، والشيخ أبي الفرج بن الجوزي الإمام الحافظ الواعظ وكان لهم تأثير في رجوع الناس إلى الدين على أصول سنية، وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور بارز في تعليم الأمة وتربيتها وخصوصاً بعد أن تولى أمرها العالم الرباني عبدالقادر الجيلاني فكان كبار علماء بلاد الشام يرحلون إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلي وللاتصال بهذه المدرسة التربوية الفقهية العقدية. وممن تربوا في هذه المدرسة الحافظ عبدالغني المقدسي الذي دخل بغداد سنة ٥٦٠هـ مع الموفق بن قدامه وأكرمهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني غاية

---

(١) انظر أيعيد التاريخ نفسه ص٧٠ إلى ٧٣.

(٢)المصدر السابق.

الإكرام[1].

وهؤلاء المقادسة أبو عمر وأخوه الموفق، وابن خالهم عبدالغني والشيخ العماد كانوا لاينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس[2] وكان لهؤلاء العلماء تأثير عظيم في نفوس المسلمين ودفعهم نحو الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة ومحاربة العقائد الباطنية الإلحادية العبيدية الإسماعيلية وكشف مخططاتهم وأساليبهم الماكرة.

وكان الواعظ الفقيه الحنبلي الدمشقي علي بن إبراهيم بن نجا، من تلاميذ المدرسة الحنبلية في بغداد، وانضم إلى صلاح الدين، وأصبحت له حظوة عنده، وهو الذي ساعد صلاح الدين في كشف مؤامرة عبيدية انتقامية للقضاء على أهل السنة في مصر وإرجاع الدولة العبيدية[3].

وفرح الناس ببلاد الشام بعودة السنة، قال أبو المظفر الجوزي: (كان الشيخ العماد يحضر مجلسي دائماً ويقول صلاح الدين: يوسف فتح الساحل، وأظهر الإسلام وانت يوسف أحييت السنة بالشام)[4].

وكان العماد المقدسي رحمه الله يجلس من الفجر إلى بعد العشاء يعلم الناس القرآن والأحكام ويشرح لهم الإسلام. لقد ساهمت مدرسة الحنابلة السنية في محاربة الجهل، ودحر الرفض، وإحياء السنة، وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس المسلمين.

---

(١) انظر أيعيد التاريخ نفسه ص٧٠ إلى ٧٣.

(٢)المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سير أعلام النبلاء ج٢٢/٥٠.

١٠- الحملات المتتابعة التي قام بها حكام السلاجقة لاقتلاع جذور الباطنية وإليك ما قام به هؤلاء الأمراء من خدمة جليلة للعالم الإسلامي.

ففي سنة ٤٣٦هـ قام سلطان بلاد ماوراء النهر بغراخان بحملة مباركة للقضاء على طائفة الإسماعيلية. وبدأ بالقضاء على من دخل بلاده من دعاة العبيديين الذين أرسلتهم الخلافة العبيدية في مصر، فقتلهم كلهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، وسلمت تلك البلاد منهم[١] بقتل الباطنية، فقام أهل أصبهان بقتل من عندهم يقودهم في ذلك الفقيه الشافعي السني مسعود بن محمد الخجندي.

وفي سنة ٥٠٠هـ قتل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلة عظيمة منهم، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها وبعد مخادعة ومخاتلة منهم، وقتل صاحبها ابن غطاش[٢].

وفي سنة ٥٢٣هـ حاول الإسماعيلية تسليم دمشق للصليبيين مقابل أن يسلمهم الصليبيون مدينة صور واكتشف أمير دمشق هذه المؤامرة الشنيعة " بوري بن طغتكين " فقتل متولي الإسماعيلية المزوقاني ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف وكان ذلك في شهر رمضان[٣].

وفي حوادث سنة ٥١١هـ قال ابن الاثير: (علم السلطان محمد "السلجوقي" أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم وكان في أيامه المقدم عليهم والقيّم بأمرهم الحسن بن الصبّاح الرازي صاحب قلعة " ألموت " وكانت أيامه قد طالت، فقد ملك القلعة ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزاته لهم وقتله

---

(١) أنظر أيعيد التاريخ نفسه ص ٧٤، ٧٥.

(٢) الكامل ج١٠/ ٤٣٠.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام ج٢ / ٣ نقلاً عن كتاب أيعيد التاريخ نفسه.

رجالهم، فسيّر السلطان له العساكر بقيادة أنوشكتين، فملك عدة قلاع منهم، ثم سار إلى قلعة "ألموت" وحاصرهم أشهراً وهم يراوغون لأخذ الأمان وترك القلعة واستمر هذا القائد في حصارهم، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد فتفرق عنه العساكر ولم تفتح القلعة[1] وفي عهد السلطان سنجر (٥٢١هـ) أوقع بالباطنية في "قلعة ألموت" وقتل منهم خلقاً كثيراً.

إن محو آثار هؤلاء المجرمين أثخنت الدولة العبيدية وساهم في إضعاف المد الباطني في العالم الإسلامي وانحساره.

إن أعمال السلاجقة في تتبع آثار الباطنية لا يستطيع أحد أن يجزيهم عن أعمالهم الجليلة التي خدمت الأمة الإسلامية إلا الكريم المنان الرازق الفتاح الغفور الرحيم.

١١- ظهور أمراء ربانيين أصحاب ديانة وتقوى ودراية بالحروب وحب للشهادة، وأخص بالذكر الأمير الرباني والقائد الميداني الذي بدأ بجهاد الصليبيين وأعاد الثقة إلى نفوس المسلمين، ووحد مدن الجزيرة والموصل، وبدأ في الزحف على النصارى ينتزع منهم ما أخذوا من الحصون والمدن بقوة الإيمان ومضي الفرسان " الأمير عماد الدين زنكي، الذي استطاع تخليص حلب من يد النصارى في عام ٥٢٢هـ وفي سنة ٥٣٢هـ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة فتحالف عماد الدين زنكي مع سلطان بن منقذ الكناني حتى ردوا النصارى على أعقابهم خاسرين.

وفي سنة ٥٣٤هـ جهز زنكي حملاته على الإفرنج، وصبر المسلمون صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير " القادسية " ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الإفرنج.

---

(١) أنظر أيعيد التاريخ نفسه ص٧٥، ٨١.

وكانت من أعظم أعماله فتح " الرها " في سنة ٥٣٩هـ وعادت هذه المدينة إلى حكم الإسلام وهي من أشرف المدن عند النصارى، وسقطت بعدها الحصون القريبة وأخلى ديار الجزيرة من حكم الفرنج وشرهم(١).

ولم يستطع زنكي إتمام هذه المرحلة، فقد قتل وهو يحاصر قلعة "جعبر" التي تقع على نهر الفرات في إقليم الجزيرة. وكان رحمه الله من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وكان شجاعاً مقداماً حازماً مدحته الشعراء في أعماله. وتوفي عام ٥٤١هـ مقتولاً.

ومما مدحه من الشعراء في أعماله ما قام به الأمير زنكي في رد ملك الروم عندما زحف على شيزر.

حيث قال المسلم بن خضر بن قسيم الحموي من قصيدة أولها:

بعَزْمِك أيّها المَلكُ العَظيـــمُ
تـــذلُ لك الصعاب وتَستَقيمُ

ومنها:

ألم تَرَ أنّ كَلبَ الرّوم لَمّــا
تَبَيّـــــنَ أنّه المَلِكُ الرّحيمُ
فجاء يُطبّقُ الفَلَوات خَيـــلاً
كأنَّ الجَحْفَـــلَ الليلُ البهيمُ
وقد نزل الزمان على رِضاهُ
ودان لَخَطبـِهِ الخَطبُ العظيمُ
فحينَ رَمَيتَهُ بك في خميسٍ
تيقن أن ذلــــك لا يَدُومُ

(١) أنظر أيعيد التاريخ نفسه ص٧٥، ٨١.

وأبصر في المَفاضةِ منكَ جيشاً

فأحرَبَ لا يَسيرُ ولا يُقــــيمُ

كأنك في العَجاج شُهـــابُ نور

تَوَقّدَ وهُوَ شيطان رجيـــــم

أراد بقـــــــــاءَ مُهجَتِهِ فَولّـيّ

وليسَ سوىَ الحِمام له حَميمُ[1]

(١) الكامل ج٧/ ٢١، ٢٢.

المبحث الثاني

نور الدين محمود

تولى أمور الدولة الزنكية بعد وفاة عمادالدين زنكي ابنه نور الدين، الذي نشأ مع والده في العراق ثم الموصل وبلاد الشام. وبعد وفاة والده قام مقامه وأظهر السنة في حلب وغيّر البدعة وقمع الرافضة، وبنى المدارس وأوقف الأوقاف وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش[1]، قال عنه ابن الأثير: (طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن سيرة منه)[2].

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من ملك كان له اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: (من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ج١/٥.

(٢) الكامل ج٧/ ٢٤٢.

ملكا، وقد وهبتها إياها فلتأخذها)[1].

وقال ابن الأثير: (وكان يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب).

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ماأحسن المحراب في المحراب[2]

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لايعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، فلم يترك في بلاده ضريبة ولا مكساً ولا غشاً، بل منعها رحمه الله جميعاً في بلاد الشام والجزيرة ومصر[3].

ومن عدله أنه بنى داراً للعدل، وكان سبب بنائها أن امراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى هذه الدار وأحس أسد الدين بهذا فقال لنوابه: (والله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين ظالم، وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع، فلما علم ماحصل

---

(١) الكامل ج٧/ ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر الروضتين ج١ / ٦.

مع أسد الدين شيركوه سجد لله شكراً.

وكان فعاله في بلاد الإسلام من المصالح كثيرة، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق وكان أهل الدين عنده في أعلى محل. وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين فقال له السلطان: يا هذا الذي تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسناته، على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت وذكرته بسوء لأؤَدبنك) [1].

ومن عفته وتقواه أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك لايتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضي، ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة[2]. وكان نور الدين رحمه الله يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت شدته، ومن ذلك ما فعله الواعظ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي - كان من صالحي زمانه - تناول نقداً للدولة الزنكية في أخذها الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه، فحذره وخوفه مما هو فيه وقال لنور الدين هذه القصيدة:

مَثّلْ وقوفك أيها المغـــــــرورُ
يـــــومَ القيامةِ والسماءُ تمورُ
إن قيلَ نورُ الدينِ رحتَ مسلّمـــاً
فاحـــذر بأن تبقى ومَالَكَ نورُ

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ج١ / ٨، ٩.

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ص٨٣.

أنهيت عن شربِ الخمورِ وأنت في

كأس المظالم طائش مخمـورُ

عطّلتَ كاساتِ المـــدام تعفّفـــاً

وعليك كاسات الحرام تـدور

ماذا تقول إذا نقلتَ إلـــى البلـــى

فرداً وجاءك منكرٌ ونكيـــــرُ

ماذا تقول إذا وقـفــتَ بموقـــفٍ

فرداً ذليلاً والحسابُ عسيــرُ ؟

وتعلقت فيك الخصـــوم وأنت في

يوم الحساب مسلسلٌ مـجرور

وتفرقت عنك الجنود وأنـــت في

ضيق القبور موسّدُ مقبـــور

وودتَ أنك ماوليـــــت ولايـــة

يوماً ولا قـال الانام أمـــــيرُ

وبقيت بعد العزّ رهن حـُفيـــرة

في عالـم الموتِ وأنت حقـــير

وحسرت عرياناً حـــــزيناً باكياً

قلقاً ومالـك في الأنام مجـــيرُ

أرضيت أن تحيا وقلبُـــك دارسُ

عافي الخراب وجسمك المعمور

أرضيت أن يحظى سـواك بقربه

أبـــداً وأنت معذّبٌ مهجـــور

مهد لنفسك حُجة تنجـــــو بها

يـــوم المعاد ويوم تبدو العور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاءً شديداً وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد[1]. وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول لهم إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذّب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب[2]. وكان رحمه الله يحارب روح التزلف والنفاق للمسؤولين. فمن ذلك أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له ويصفونه بالعبارات الرنانة التي تعوّدوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له الصيغة التالية:

(اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك: أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين) .

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها العبارة التالية: (مقصودي ألا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل مايقال أأفرح بما لا أعمل!؟ قلة عقل عظيم، الذي كتبت هو جيد اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد) ثم أضاف: (ثم يبدأ بالدعاء: (اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم فقهه..... من هذا الجنس)[3].

وعندما طلب من نور الدين أن يسمح للأمراء أن يعملوا بنوع من السياسة لأن المفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ويحتاج إلى نوع من السياسة. ومثل

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢/٣٠٢).

(٢) انظر: د.حسين مؤنس – نور الدين محمود ص٤٠٠،٤٠١.

(٣) المصدر السابق ص٤٤٠، ٤٠١.

هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له؟.

فلما وصل الكتاب إلى نور الدين قلبه وكتب على ظهره: (إن الله تعالى يخلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا. فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته. وهذا من الجرأة على الله وشرعه. والعقول المظلمة لاتهدي فالله سبحانه وتعالى يهدينا إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم، وكان الذي طلب من السلطان نور الدين الشيخ عمر الملاء بطلب من الأمراء فلما وصل رد السلطان إلى الشيخ عمر جمع أهل الموصل وقرأ عليهم الكتاب وقال: (انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد)[1].

هذا الذي ذكرت بعض سيرة السلطان نور الدين محمود ليعلم القارئ أن الذي يكرمه الله بنصره وتأييده لابد أن يكون ربانياً موصولاً بالله تعالى.

وكانت سياسة دولة نور الدين محمود لها أهداف رسمتها وسعت سعياً حثيثاً لتحقيقها ومن أهم تلك الأهداف الواضحة المعالم:

أولاً: إعداد الشعب إعداداً إسلامياً وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات العبيدية للعبادات والشعائر ولهذا الهدف النبيل عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث. واستقدمت مشاهير العلماء وفرغتهم للدعوة والتعليم والتربية وخاصة الذين تخرجوا من المدرستين التربويتين الغزالية

---

(١) ابن القاضي شهبة، الكواكب الدرية ص ٢٥، ٢٦.

والقادرية وانصبت الخطة التعليمية التربوية في زمن السلطان نور الدين محمود على صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق مع أهداف الإسلام على أسس عقدية واضحة المعالم، وكانت محاضن هذا الإعداد في المدارس والمساجد وكان في دمشق وحدها أكثر من مائة مسجد وركزت تلك الانطلاقة العلمية التربوية على بث روح الإسلام ذات المفاهيم السنية والطريقة النبوية، واستهدفت تجفيف وحسر التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثاراً عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية، والتي من أجلها وصفهم ابن جبير بأنهم لا إسلام لهم، وأنهم أهل أهواء وبدع إلا من رحم الله. ومنعت الدولة الزنكية كل المظاهر العبيدية في البلدان التي ضمتها إلى أملاكها. فمنعت من الآذان "حي على خير العمل" والتظاهر بسب الصحابة، وأنكرت ذلك إنكاراً شديداً. ووقف علماء أهل السنة مع الدولة كجنود لها مخلصين. وعظم الخطب على طائفة الإسماعيلية الباطنية العبيدية وأهل التشيع عموماً، وضافت صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من سطوة الدولة الزنكية السنية[1] وكان الفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري الخراساني صاحب القدح المعلى في إحياء السنن في زمن السلطان نور الدين محمود، وكذلك ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر البغدادي كان من أعمدة الدولة الزنكية، وانضم إلى الدولة النورية من أصبهان شرف الدين عبدالمؤمن بن شوردة.

وأوضح السلطان نور الدين سياسة الدولة التعليمية بقوله: (ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين) .

---

(١) انظر بدر الدين بن قاضي شهبة، الكواكب الدرية. تحقيق محمود زايد " بيروت: دار الكتاب الجديد ١٩٧١.

وتبارى الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لأفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها.

وكانت جماهير المسلمين العريضة من العمال والمزارعين والتجار مستهدفة من قبل الدولة الزنكية، فلم تترك إرشادهم وتوجيههم فزرعت في نفوسهم العقيدة والأخلاق والقيم، وكان للتصوف المعتدل بقيادة الشيخ عبدالقادر الجيلاني أثر واضح في نفوس الجماهير. واستفادت الدولة الزنكية من الحركة الصوفية الإصلاحية القادرية، فأقامت لهم الأربطة والزوايا، واحترمت شيوخهم واستقدمتهم وهذبت الجماهير وزكتهم وفق خطة الدولة المرسومة. واهتمت الدولة بالإعداد العسكري إلى جانب التعليم والإرشاد والتربية، ودربت كافة أتباعها تدريباً عسكرياً وبثت روح الجهاد في صفوفهم وكان التدريب يقوم على دعامتين:

١- الإعداد المعنوي والروحي.

٢- ثم التدريب العسكري وألف زعيم الدولة الزنكية السلطان نور الدين محمود كتاباً في الجهاد.

وتكاملت جهود العلماء والفقهاء والمربين والقادة والزعماء في داخل مؤسسات الدولة المتعددة، وسعت في تحقيق برامج الدولة النورية السنية.

وبسبب هذا التكامل والوفاق أصبحت الدولة النورية قطباً جذاباً لكافة العلماء والشيوخ فهاجروا إليها من كافة بقاع العالم الإسلامي، وانضووا تحت لوائها الإسلامي المجيد، وتجاوز عددهم الآلاف، واستفادت الدولة منهم وفق برامجها وتذكر كتب التاريخ أسماء الآلاف من المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التي تضافرت فيها الجهود المذكورة، وأصبحت الدولة الزنكية بقيادة السلطان نور الدين تشرف على كافة الخطط والبرامج المرسومة

التي بدأت تعطي ثمارها بتغيير البنية القديمة لبلاد الشام، ونشأ جيل التغيير الفعلي، وسيطرت الروح الإسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده، ووجهت نشاطاتهم في جميع ميادين الحياة القائمة، وأصبح التغيير تغير أمة، وتحققت سنة الله الجارية فيهم[1].

﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾

ثانياً: استطاعت الدولة الزنكية أن تصبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وأن تدمج القيادات السياسية والفكرية بالمفاهيم والأحكام الشرعية.

فكان رجال نور الدين ومعاونوه وقادة جيشه على مستوى راقي من العلم والأخلاق ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري. فقد كان فقيهاً اصولياً شغل مناصب مختلفة منها السفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء، واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين[2].

ومنهم عبدالله بن محمد بن أبي عصرون الذي شغل منصب قاضي دمشق وناظراً للأوقاف[3] وكذلك كان صلاح الدين فقيهاً درس الفقه الشافعي وسمع الحديث من أبي طاهر السلفي وغيره روى الحديث عنه أناس مثل يونس بن محمد الفرقي والعماد الكاتب وغيرهم. ويقال: إنه كان يحفظ القرآن و "التنبيه" في الفقه و " الحماسة " في الشعر[4].

ومثله وزيره الشهير وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي

---

(١) انظر هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢١٥ - ٢١٧.

(٢) انظر البسكي، طبقات الشافعية ج٦/ ١٨٨.

(٣) المصدر السابق ج٤ / ٢٣٧.

(٤) المصدر السابق ج٧ / ٣٤.

والذي قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل. وكان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكة السياسية ورعاً فائقاً. فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن. وكان متواضعاً يُكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء. لقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج. ومن أمثلة المهارات والمزايا ما يلي:

الأولى: - تكامل القيادات الفكرية والسياسية، فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه[1].

الثانية: - اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات، ولقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى، وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها، أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولايتعدى الرأي الذي يتفق عليه. ومن ذلك ما حدث في قلعة دمشق في ١٩ صفر عام ٥٥٤هـ / ١١ يوليو سنة ١١٤٩م حين عقد نور الدين مجلساً دعا إليه القضاة وكبار رجال الدولة ونفراً من الأعيان وشهود العدالة للنظر في الأوقاف المرصودة للجامع الأموي. وكان شيوخ الجامع فيما مضى

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص٢٢٥.

قد ادخلوا في أوقاف الجامع عقارات وأعياناً أخرى داخلة في المنافع العامة. فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك، لكي يستخدم أموال المنافع العامة في التحصينات العسكرية في الثغور وبناء سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم، لأن هذا من " أهم المصالح " عند نور الدين، وأقر المجلس رأياً يخالف ما أراده نور الدين ولم يأذنوا له بصرف " فواضل الأوقاف في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين " وأجازوا له أن يأخذ قرضاً من هذه الفواضل يستخدمه في تلك المصلحة على أن يرده من بيت المال. ومع شدة حاجة نور الدين إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع في ذلك الحين فإنه قبل رأي المجلس بنفس راضية، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة احتراماً للرأي وتكريماً للدين ورجاله[1].

والميزة الثالثة: - التي ميزت تلك الإدارة هي غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران.

والميزة الرابعة: - هي التفاني في أداء الواجب المقدس بتعاون وتآخ إسلامي رفيع ابتغاء مرضات الله. وكان تعلقهم بالدين والشرع شيء يدل على تربية عالية ومن حبهم لدينهم جعل الأمراء والحكام والسلاطين يتخيرون أسماء تدل على ذلك: عماد الدين، سيف الدين، معين الدين، نور الدين، صلاح الدين، أسد الدين، نجم الدين، وزين الدين، وكان البويهيون الشيعة من حبهم للدنيا والملك يسمون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمام الدولة.

وكان أمراء وحكام الدولة النورية يحبون الموت في سبيل الله في ساحات

---

(١) حسين مؤنس، نور الدين محمود ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

الوغى، واذا تعذر ذلك كتبوا في وصيتهم أن يدفنوا في المدينة النبوية. فعل ذلك جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين[1].

توحيد بلاد الشام والديار المصرية

كانت سياسة نور الدين محمود الرشيدة تسعى لتوحيد المسلمين تحت قيادة واحدة ومنهج أصيل فاستطاع أن يضم دمشق مع حلب والرها وغيرها من المدن الإسلامية التي حرّرها المسلمون بقوة السيف وحب الشهادة. وبدأ نور الدين في زحفه على حصون النصارى ومدنهم الواقعة بين مصر والشام، وكانت رغبة نور الدين في تخليص بلاد مصر من العبيديين الباطنيين الحاقدين حلفاء النصارى أمنية غالية ومطلباً شرعياً رفيعاً فأرسل إلى مصر علماء وفقهاء ووعاظ لدعوة الناس، وتهيئة الرأي العام للفتح السني المجيد، وتخليص البلاد من نتن الروافض البغيض. ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذا الدور محمد بن الموفق الخبوشاني الذي دخل مصر في عام ٥٦٠هـ وبدأ يبشر بالإسلام الصحيح، ويلعن العبيديين، ويصفهم بالزندقة واليهودية، وتطاير الركبان بأخباره في جميع أنحاء العالم الإسلامي[2].

وكانت الدولة النورية السنية تتحين الفرصة للدخول العسكري إلى مصر وجاءت الفرصة المناسبة عندما اختلف حكام مصر العبيديين فيما بينهم من أجل مصالحهم الدنيوية فاستنجد الوزير شاور بنور الدين محمود، والقائد ضرغام بن ثعلبة بالصليبيين.

---

(١) البداية والنهاية ج١٢/ ص ٢٧٢.

(٢) أنظر هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٢.

واحتدم الصراع ومرّ بمراحل حتى استطاع أسد الدين شيركوه الذي أرسله نـور الدين إلى مصر أن يحكم قبضته، واستقر الأمر لنور الدين في عام ٥٦٤هـ عندما تولى أمر مصر صلاح الدين بعد عمه أسد الدين، وتدرج صلاح الدين في القضاء على الدولة العبيدية في مصر وإعادة السنة فيها ووحد الصفوف الإسلامية لفتح بيت المقدس.

وفاة نور الدين محمود

في عام ٥٦٩هـ[1] انتقل إلى رحمة الله السلطان السني الغيور المخلص المجاهد مميت البدعة ومحيي السنة وهازم النصارى وناصر الدين السلطان نور الدين محمود بعد جهاد عظيم، وعمل جليل، وتفانٍ نادر، وخدمة للدين، وتقدم تلميذه المخلص الذي تربى على يديه واختاره لقيادة الجيوش السلطان صلاح الدين الأيوبي.

---

(١) البداية والنهاية ج١٢ / ص ٣٩٧.

المبحث الثالث

صلاح الدين الأيوبي محرر القدس
ومزيل دولة العبيديين من مصر

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ بقلعة تكريت في العراق، وكان والده أيوب بن شادي والياً عليها. ثم انتقل الوالد إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، وتربى الشبل الأيوبي في كنف والده وعمه المجاهدين، وبدأ يترقى في كتائب المجاهدين، وانتدب لمرافقة عمه أسد الدين عندما أرسله نور الدين محمود إلى مصر، وتسلم منصب وزارة التفويض بعد وفاة عمه في نهاية الدولة العبيدية، وبدأ في إرجاع مصر للخلافة السنية العباسية متدرجاً في تنفيذ هدفه النبيل، والذي اشتاقت إليه نفوس المسلمين، فعزل قضاة مصر الروافض العبيديين، وأسند أمر القضاء إلى عبدالملك بن درباس الشافعي، وقطع الأذان بـ "حي على خير العمل" وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر ٢٠٨ سنة، وبشر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك، وفرح الناس وقضى صلاح الدين على كل المحاولات الفاشلة لإرجاع مصر للخلافة العبيدية، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً.

وقال العماد الأصبهاني في رجوع مصر للخلافة العباسية أبياتاً شعرية رائعة بعد وفاة العاضد العبيدي وزوال ملكه ودولته من مصر:

توفي العاضد الدعـــــــيّ مما

يفتحُ ذو بدعة بمصرَ فما

وعصر فرعونها انقضى وغداً

يوسفهـــــا في الأمور محتكما

قد طفئت جمرة الغـــواة وقد

داخ من الشرك كل ما اضطرما

وصار شملُ الصـــلاحِ ملتئماً

بها وعقـدُ الســـــــدادِ منتظماً

لما غدا مشعراً شعـــار بني

العباس حقاً والباطـــــل اكتتما

وبات داعي التوحيـد منتظراً

ومن دعاة الإشراك منتقـــــماً

وظل أهل الضـــلالِ فـي ظللٍ

داحية من غبائه وعمـــــــــى

وارتكس الجاهلـــون في ظلم

لما أضاءت منابرُ العلمـــــــا

وعادَ بالمستضـــــيء معتلياً

بناء حقٍّ بعدما كان منهدمـــــا

أعيدت الدولة التي اضطهدت

وانتصر الدين بعدما كان اهتفما

واهتزَّ عِطفُ الإسلام من جللٍ

وافترَ يغرُ الإسلام وابتسمــــا

واستبشرت أوجه الهـدى فرحاً

فليقرع الكفر سنه ندمـــــا

عاد حريم الأعداء منتهك الهدى

وفي الطغـــاة منقسمــــا

قصورُ أهل القصورِ أخربهـــا

عامرُ بيتٍ من الكمال سمـــا

أزعج بعد السكوتِ ساكنهـــا

ومات ذلاً وأنفهُ رغمــــا[1]

وكان سقوط الدولة العبيدية سنة ٥٦٧هـ وقال ابن كثير في ذلك: (قد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب ﴿ كأن لم يغنوا فيها﴾[2]. وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سَلَمِيَّةَ حداداً اسمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيدالله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة بعد الأربعمائة والمقصود أن هذا الدعي الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد، وآزره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار ملكاً مطاعاً، يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض. ثم كان من بعده ابنه القائم محمد، ثم ابنه المنصور إسماعيل، ثم ابنه معدّ، وهو أول من دخل ديار مصر منهم وبنيت له القاهرة المعزية والقصران، ثم ابنه العزيز نزار، ثم ابنه الحاكم منصور، ثم ابنه الطاهر علي، ثم ابنه المستنصر معد، ثم ابنه المستعلي

---

(١) البداية والنهاية ج٢/ ٢٨٤.

(٢) سورة هود الآية ٩٥.

أحمد، ثم ابنه الآمر منصور، ثم ابن عمه الحافظ عبدالمجيد، ثم ابنه الظافر إسماعيل، ثم الفائز عيسى، ثم ابن عمه العاضد عبدالله وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكاً، مدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة وكذلك عدد خلفاء بني أمية أربعة عشر أيضاً ولكن مدتهم نيفاً وثمانين سنة إلى أن قال...

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثرت بأرض الشام النصيرية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك والشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وأنطاكية وجميع ماوإلى ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقاً وأمماً لا يحصيهم إلا الله، سبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين مالا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن الله سلم، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عز وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته) [1].

وقد مدح علماء أهل السنة وفقهاؤهم وحكامهم هذا الفعل الجميل لصلاح الدين ألا وهو القضاء على دولة العبيديين الرافضية الباطنية وأكثر الشعراء القصائد في مدح صلاح الدين فقال بعضهم:

أبدتم من بلى دولة الكفر من

بَني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل

(١) البداية والنهاية ج١٢ / ٢٨٧.

زنادقـــة شيعيـــة باطنيـــــة مجوسُ

ومـــــا في الصالحين لهم أصل

يسرّون كفراً يظهـــــرون تشيـــــعاً

ليستـــــــروا سابورَ عمّهم الجهلُ[1].

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة العبيدية هدفاً استراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذووي الكفاءة المنشودة. فتمم الله له ما أراد على يد جنديه المخلص صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

وبعد أن استقرت أمور البلاد والعباد في بلاد مصر، وأزيلت البدعة، وأحييت السنة، وأميتت الفتنة، وانتقل نور الدين إلى ربه الغفور الرحيم، آل الأمر إلى صلاح الدين بعد فتن استطاع أن يقضي عليها. ووحد بلاد الشام ومصر تحت زعامته الفتية، وشرع في تنفيذ الأهداف المرسومة للدولة النورية. وكان من أهداف نور الدين العظيمة تحرير ديار المسلمين من النصارى وتحرير بيت المقدس، حتى إنه هيأ منبراً عظيماً لهذه الغاية، ولكنه مات قبل تحقيق هذا الهدف الغالي الذي ادخره الله لصلاح الدين، فعزم صلاح الدين على مواصلة حركة الجهاد المقدس، وفك الحصون والمدن من النصارى بالقوة بخطة واضحة محكمة، فانتصر على الفرنجة في موقعة " مرج العيون " سنة ٥٧٥هـ وموقعة "بانياس " وأسر رؤساءهم ودمر حصن الأحزان في صفد، ومازال يناوش الفرنجة وينتزع منهم الحصون حصناً بعد حصن حتى تجمع عنده جيش كبير

(١) البداية والنهاية ج١٢ / ٢٨٨.

في سهل حطين، حيث كانت الموقعة الكبرى التي كسرت عظام الصليبيين ومهدت لفتح القدس، وقد أسر وقتل معظم من حضرها من الفرنجة: (فمن شاهد القتلى قال: ما هناك من أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هنالك من قتيل، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل)[1].

وكان من الأسرى صاحب الكرك " أرناط " الذي كان يؤذي الحجاج وسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قد وصل صلاح الدين ذلك فنذر لله ليقتلنه بنفسه حمية لدينه وحباً لرسوله صلى الله عليه وسلم فقتله صلاح الدين بنفسه ووفى بنذره وخلص المسلمين من شره.

وكانت موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ، وركب الصليبيين النصارى غمٌ وهمٌ وحزنٌ ورعبٌ وزحفت جيوش الناصر صلاح الدين تحرر مدن المسلمين، وتذل النصارى الحاقدين، وتخلص أسرى المسلمين من الأسر الذي طال أمده، وأرسل السلطان صلاح الدين أعيان الفرنج ومن لم يقتل من رؤوسهم، وبصليبهم الذي كانوا يحملونه في حروبهم ويزعمون أن المسيح عليه السلام صلب عليه والمسمى عندهم صليب الصلبوت بصحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل الصليب منكساً وكان يوماً مشهوداً.

وسار السلطان إلى قلاع النصارى ومدنهم فحرر قلعة طبرية، ثم خلص عكا من النصارى وفك أسرى المسلمين منها وكانوا أربعة آلاف مسلم ثم صيدا وبيروت ثم عسقلان ونابلس ثم بيسان وأرض الغور، فملك ذلك كله.

وأمر السلطان جيوشه أن ترتاح في هذه الأماكن ويستعدوا لفتح القدس

---

(١) أنظر الروضتين ج٢/ ٧٨.

وطـار فـي النـاس الخـبر، وعلمـوا عـزم السـلطان علــى ذلـك فقصــده العلمــاء والصالحون من أماكن عديدة تطوعاً، وجاؤوا إليه كجنود في خدمته الميمونة[1].

وبدأت بشائر التحرير بزحف جيوش صلاح الدين نحـو بيـت المقـدس الـذي استمر ثنتين وتسعين سنة تحـت سيطرة النصـارى الحـاقدين وضربـت جيـوش الناصر صلاح الدين الحصار المحكم على بيت المقدس واستمر حصارها.

وتذكر كتب التاريخ أن صلاح الدين عندمـا سـار إلـى بيـت المقدس وصلتـه رسالة من أحد المأسورين في القدس فيها أبيات على لسان المسجد الأقصى:

يا أيها الملـــــــك الذي

لمعالـــم الصلبان نكّس

جاءت إليك ظلامــــــة

تسعى مـن البيت المقدس

كل المساجـــــد طُهّرتْ

وأنــا على شرفي منجس[2]

وبعد اشتداد الحصار على النصارى طلبوا الأمان ونـزل ملـك بيـت المقـدس يترقق للسلطان وذل ذلاً عظيماً، فأجابهم صلاح الدين ودخـل المسـلمون القـدس ووفوا بالصلح المضروب مع النصارى، وشرعوا في تنظيف المسـجد الأقصـى مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وأعيد على ما كـان عليـه زمـن المسلمين، وغسلت الصخرة بالماء الطهور وأعيد غسلها بمـاء الـورد والمسـك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة مخبؤة عن الزائرين، ووضــع الصليب عن قبتها وعــادت إلـى حرمتهـا، وامتـن السـلطان صـلاح الديـن علـى

---

(١) أنظر الروضتين ج٢/ ٧٨.

(٢) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبدالله علوان ص٧٥.

بنات الملوك ومن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم وشفع في أناس كثير فعفا عنهم، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئاً مما يقتني ويدخر، وكان رحمه الله كريماً مقداماً شجاعاً حليماً[1] وكان ذلك في عام ٥٨٣هـ من شهر رجب وذكر ابن كثير رحمه الله أول خطبة ألقيت في بيت المقدس فقال: (لما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقسس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالآذان وقرئ القرآن ووحد الرحمن، وكانت أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فصف المنبر إلى جانب المحراب، وبسطت البسط وعلقت القناديل وتلي التنزيل، وجاء الحق وبطلت الأباطيل، وصفت السجادات وكثرت السجدات وأقيمت الصلوات، وأذن المؤذنون، وخرس القسيسون، وزال البؤس، وطابت النفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس، وعُبِدَ الله الأحد الذي ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[2] وكبره الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال، ولم يكن عين خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، وذكر فيها شرف بيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة في الروضتين بطولها وكان أول ما قال: ﴿فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله

---

(١) أنظر صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس ص٧٥.

(٢) سورة الاخلاص.

رب العالمين﴾[1].

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: (الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله من طله وهطله " الندى والمطر " الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلايمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى ﴿عندها جنة المأوى﴾ ﴿مازاغ البصر وما طغى﴾[2] وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان)[3].

واستمر في خطبته الرفيعة المنيعة الممزوجة بالعاطفة الجياشة والمشاعر والأحاسيس المحبوسة إلى أن قال: فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم

---

(١) سورة الانعام: الآية ٤٥.

(٢) سورة النجم: الآية ١٥، ١٧.

(٣) البداية والنهاية ج١٢/ ٣٤٦.

المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل الله منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها، وقوموا إلى الله بواجب شكرها فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة...[1] إلى آخر ما جاء في الخطبة.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر، وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال، وإليك ماقاله الشاعر العالم أبو الحسن بن علي الجويني:

جند السماء لهذا الملك أعوان

من شك فيهم فهذا الفتح برهان

هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما

لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصّيدُ في يده

صيداً وما ضعُفُوا يوماً وما هانوا

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ

والإسلام أنصاره صُمٌّ وعميانُ

فالآن لبّى صلاح الدين دعوتهم

بأمر من هو للمعوان معوان

(١) صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ص ٧٨.

إذا طوى الله ديوان العباد فمـــا

يُطــوى لأجر صلاح الدين ديوان[1]

وقال محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية:

أترى مناماً ما بعيني أبصــر

القـــــــدس تفتح والفرنجة تُكسَرُ

ومليكهم في القيد مصفود ولم

يُر قبـــــــل ذلك لهم مليك يؤسر

فُتِح الشام وطُهِّر القدسُ الذي

هو في القيامـــــة للأنام المحشر

يا يوسف الصديق أنت لفتحها

فاروقها عمرُ الإمــــــام الأطهرُ

ولأنت عثمان الشريعة بعـده

ولأنت في نصر النبوة حيـــــدرُ[2]

وكانت بنود الصلح التي تمت بين صلاح الدين والنصارى (أن يسمح لهم بالخروج لمدة أربعين يوماً، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير)[3].

إلا أن السلطان صلاح الدين تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان، ليعطي للبغاة المعتدين، والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب، والقدوة الصالحة في

---

(١) صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ص ٧٨، ٧٩.

(٢) المصدر السابق ص ٧٩.

(٣) نفس المصدر السابق.

السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.

فأعطى للنصارى العاجزين الذين تركهم أمراؤهم ولم يجدوا من يعينهم أعطاهم أموالاً ودواباً لتحمل أثقالهم إلى ما يريدون.

وكانت إحدى نساء ملك من ملوك الروم قد ترهبت واستأذنت للذهاب إلى زوجها والمكث معه فأذن لها وسيرها إلى زوجها السجين للبقاء معه بقلعة نابلس واجتمعت مجموعة من النساء وتوسلن للسلطان في أزواجهن وأبنائهن، فرقّ لهن، وأمر بالإفراج عنهم، وفتح للعجزة والفقراء باب الخروج بدون دفع جزية وذكر كتّاب الغرب من أمثال " استيفن سن " استانلي لين بول " الشيء الكثير في بر وإحسان صلاح الدين بالنصارى.

وأذن السلطان صلاح الدين لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاؤوا من المتاع والأموال، فأخذوا ما شاؤوا دون أن يعترضهم معترض، تاركين ما لا قبل لهم بحمله، فابتاعه المسلمون منهم.

وكان أحد البطارقة قد خرج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين فقيل للسلطان (لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تُقَوِّي به أمر المسلمين ؟) فقال لهم السلطان: (لا آخذ منه غير العشرة الدنانير، ولا أغدر به)[1].

أما معاملة النصارى الحاقدين للمسلمين عندما انتزعوها من أيدينا في عام ٤٩٢هـ فإليك ماقاله " مل " المؤرخ الإنكليزي " كان المسلمون يُقتلون في الشوارع والبيوت، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار وانزوى البعض الآخر في

---

(١) صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ص٨٣.

القصور والأبراج وحتى في المساجد، غير أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا ثم يقول: (ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين، فلم يسمع في وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى) .

فهذا صلاح الدين المسلم السني الرباني يقدم للأجيال الإنسانية دروساً في غاية الروعة والجمال نحتت في صفحات تاريخ البشرية لتدل على عظمة هذا الدين الذي أخرج للوجود مثل نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، فعليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية

فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحلّلتم قتل الأسارى وطالما

غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفوت بيننا

وكل إناء بالذي فيه ينضح

اني وصلت في دراساتي للشخصيات الإسلامية أنه ما ظهر قائد رباني وحقق انتصارات ميدانية وأزاح شعارات كفرية إلا كان خلفه علماء وفقهاء يوجهونه ويرشدونه نحو الرأي السديد، وهذا ما حدث لصلاح الدين حيث كان اهتمامه بالعلماء والفقهاء عظيماً، إلا أن هناك عالم وفقيه وأديب له أثر واضح في حياته لابد من التعريف به ألا وهو:

أ- القاضي الفاضل

قال الذهبي في ترجمته: (المولى الإمام العلامة البليغ، القاضي الفاضل، محيي الدين، يمين المملكة، سيد الفصحاء، أبو علي عبدالرحيم بن عليّ بن الحسن بن أحمد بن المفرّج، اللخميُ، الشامي العسقلاني المولد، المصري الدار، الكاتب، صاحبُ ديوان الإنشاء الصّلاحيِّ ولد سنة ٥٢٩هـ[١].

قال عنه العماد الأصبهاني: (قضى سعيداً، ولم يُبْقِ عملاً صالحاً إلا قدَّمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه ولا عقد برٍّ إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه متجاوزة الحساب، لاسيما أوقافه لفكاك الأسرى، وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتاب، كان للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، والسلطان له مطيع، وما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، ومقاليد غناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى الآئه منسوباً، وكانت كتائبُه كتائبَ النصر، ويراعتُه رائعة الدهر، وبراعته باريةً للبرّ، وعبارتُه نافثةً في عُقَدِ السحر، وبلاغتُه للدولة مجمّلةً وللمملكة مُكَمِّلةً، وللعصر الصلاحيِّ على سائر الأعصار مفضلةً، نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرر دعاءً في مكاتبةٍ، ولا ردَّدَ لفظاً في مخاطبةٍ إلى أن قال: فإلى من بعده الوفادة ؟، وممن الإفادةُ، وفيمن السيادة ؟، ولمن السعادة؟[٢]

ومدحته الشعراء على حسن تدبيره وآرائه النافذة، وقدرته على حل

---

(١) أنظر سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) المصدر السابق ج٢١/ ٣٤٠.

المعضلات التي تتعرض لها دولة صلاح الدين، واجتهاده في الصيام والقيام وحبه للعلم، وتواضعه وحلمه وكرمه وجوده وإنفاقه وجهاده، فقال فيه هبة الله ابنُ سيناء الملك:

وأتتْ سعادتُه إلى أبوابه
لا كالذي يسعى إلى أبوابها
فلتفتخر الدنيا بسائس ملكها
منه ودارسِ علمها وكتابها
صوّامِها قوّامها عَلاّمِها
عَمّالِها بَذّالِها وهّابها[1]

ركن إليه السلطان صلاح الدين ركوناً تاماً، وتقدم عنده كثيراً.

وكان رحمه الله ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، اشتهر بالدين والعفاف، والتقى، والمواظبة على أوراد الليل والصيام والتلاوة، فلما تملّك أسد الدين مصر، أحضره، فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دربة قوية، وكان متقللاً في طعامه ومنكحه وملبسه، ولباسه البياض، وكان يكثر من تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف في السر والعلانية، ضعيف البنية رقيق الصورة[2].

قال في حقه السلطان صلاح الدين: (لاتظنّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل)[3].

---

(١) أنظر سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٣٤١.
(٢) المصدر السابق ج٢١/٣٤٣.
(٣) النجوم الزاهرة ج٦/ ١٥٧.

وقال في مدحه العماد الأصبهاني:

عاينتُ طَوْدَ سكينة ورأيـــــت

الشمس فضيلة ووردت بحر فواضِلِ

ورأيتُ سَحْبَانَ البلاغـة ساحـــباً

ببيانـــــــه ذيـــلَ الفِخـــار لوائلِ

حلفُ الحَصَافةِ والفصـاحـــــة

والسماحة والحماسة والتقـــى والنائل

بحرُ من الفضل الغــزير خَضَمُهُ

طامي العباب وماله من ساحــــلِ

في كفه قلمٌ يعجـــل جريــــــه

ما كان من أجل ورزق عاجـــلِ

أبصرت قُسّا في الفصاحة معجزاً

فعرفت أنــــــي في فَهَّةِ باقـــلِ[1]

وعندما طلب القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين أن يعيّن بدلـه عماد الدين الأصبهاني ليحل تراجم الأعاجم، فقال لـه صلاح الدين: مالي عنـك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس[2] واتفقا أن يقوم عماد الدين الأصبهاني بدل القاضي عندما يغيب القاضي الفاضل.

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفضل الفاضل وبلاغته أشهر من أن يذكر ومن شعره قوله:

---

(١) النجوم الزاهرة ج٦/٧٣، ٧٤.

(٢) المصدر السابق ج٦/ ٧٤.

وإذا السعادة لا حظتك عيونها

نم فالمخاوف كلهن أمـــان

واصطْد بها العنقاء فهي حبائل

واقتد بها الجَوزاء فهي عِنَانُ[1]

إن القاضي الفاضل رحمه الله كان موضع ثقة صلاح الدين ومحل أسراره واستشارته فلا يقطع أمراً دونه[2]، فكان يستشيره في المهمات الكبيرة خاصة، بل كان يقول العماد الأصبهاني الكاتب عنه (سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة) [3].

وهو الذي كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب، ويحذره من أن يظلم الجنود أحداً فيكون سبباً للهزيمة يقول ابن كثير رحمه الله في ذلك: (وكان القاضي الفاضل بمصر يدير الممالك بها، ويجهز للسلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية، فمنها كتاب يذكر فيه أن سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب، وارتكاب المحارم بين الناس، فإن الله لاينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار، والمعاصي في كل مكان فاشية، وقد صعد إلى الله منها ما يتوقع بعده الاستعاذة منه، ومنها كتاب يقول فيه إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدوّنا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا مالا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه ولا يغتر

---

(١) النجوم الزاهرة ج٦/١٥٧.

(٢) البداية والنهاية ج١٢/ ٣٤٠.

(٣) الروضتين ج٢/ ٢٤١.

بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمن من أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق. إلى أن قال ابن كثير فيه: (وقد أورد الشيخ شهاب الدين صاحب الروضتين هاهنا كتباً عدة من الفاضل إلى السلطان صلاح الدين، فيها فصاحة وبلاغة ومواعظ وتحضيض على الجهاد، فرحمه الله من إنسان ما أفصحه، ومن وزير ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه)[1].

وبأمثال هؤلاء ينصر الله دينه ويسدد رمي أوليائه وقد أكرم الله تعالى صلاح الدين بهذا العالم الجليل الأديب الفقيه الوزير الناصح الزاهد التقي الورع المنفق صاحب الدعوة المستجابة.

وفاته

في سنة ٥٩٦هـ لبّى القاضي الفاضل نداء ربه عندما كان أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية[2]. وذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه كان بين الملك العادل أبي بكر بن أيوب والفاضل وحشة فلّما بلغ الفاضل مجيء العادل إلى مصر دعا الله أن يقبضه إليه فمات قبل دخول العادل، فعندما كان العادل داخلاً من باب النصر، كانت جنازة القاضي الفاضل خارجة من زويلة[3]

---

(١) انظر البداية والنهاية ج١٢/ ٣٦١.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ج٢١/٣٤٣.

(٣) انظر النجوم الزاهرة ج٦/ ١٥٧.

ب- وفاة السلطان الناصر صلاح الدين

عندما وقفت على ترجمة صلاح الدين رحمه الله ووصلت إلى آخر لحظات حياته ذرفت عيوني بالدموع، واهتز قلبي بالخشوع، لهذا البطل العملاق الذي كان للإسلام رداءً وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وكانت وفاته في عام ٥٨٩هـ وتذكر كتب التاريخ أن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، فعندما كان يقرأ عليه القرآن وهو في سكرات الموت مرّ القارئ على قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾[1] فقال صلاح الدين رحمه الله: وهو كذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ ﴿لا إله إلا هو عليه توكلت﴾[2] تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه ومات رحمه الله وجعل الجنة مثواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، ثم أخذوا في تجهيزه وحضر جميع أولاده وأهله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال. وأمَّ الناسَ عليه القاضي بن الزكي ثم دفن في داره بالقلعة المنصورة في دمشق ونزل ابنه الأفضل في لحده ودفنه وهو يومئذ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله[3].

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٩.

(٢) سورة التوبة الآية ٩.

(٣) أنظر البداية والنهاية ج١٢/ ٥.

لقد وقع نبأ صلاح الدين على المسلمين جميعاً وقع الصاعقة للصدمة الفادحة، والمصاب الجلل وهذا القاضي ابن شداد يصف لنا ذلك المشهد المريع إذ يقول: (وكان يوم موته يوماً لم يُصَب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - وغشيَ القلعة والمُلْك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع الناس أنهم يتمنون فدا من يعزّ عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوزّ والتخرص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفِداء لفدي بالأنفس[1].

لقد كان صلاح الدين رحمه الله قائداً ربانياً تربى في أجواء علمية رسخت في زمن نور الدين محمود، واستمرت في عهده فأخرجت هذا الأنموذج الرفيع، الذي أعاد الله به للأمة عزتها وقوتها.

ج - الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين

أولاً: - تقريبه للعلماء وحبهم واحترامهم واستشارتهم وإعطائهم المكانة اللائقة بهم، وإحياء المدارس والعلم، وحضور السلطان مجالس العلم، بل إن السلطان صلاح الدين يذهب إلى الإسكندرية مصطحباً معه ولديه علي وعثمان لحضور مجلس الحافظ السّلفي، وترقى العالم كمال الدين الشهرزوري إلى مرتبة الوزارة. ومن مستشاري صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلي، ووزيره القاضي الفاضل من أكابر الكتاب محباً للعلم وأهله ومنهم نجم الدين

---

(١) أنظر النجوم الزاهرة ج٦/ ٥٢.

الخبوشاني، والفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية وقطع الخطبة لهم، بنى له صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه، ومن الفقهاء الأمراء الفقيه الهكاري (وكان جندياً شجاعاً كريماً، تفقه على الشيخ أبي القاسم البرزي واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، وكان يخاطب صلاح الدين بما لايقدر عليه غيره، توفي وصلاح الدين محاصر لعكا)(١).

وكان إذا زاره عالم اهتم به جداً، ولايتركه حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لاتكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء، وقال القاضي ابن شداد: (وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً)(٢) وكان آل المقدسي الذين سكنوا حيّ الصالحية في دمشق أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبدالغني والشيخ العماد، كانوا لاينقطعون عن غزاة يخرج صلاح الدين فيها وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها) (٣).

إن القادة الذين يحترمون العلماء والفقهاء في حقيقة عملهم هذا قد أخذوا بسنة من سنن التمكين والنصر والغلبة على الأعداء.

إن الذين يهاجمون علماء الأمة ومفكريها وساستها ومربيها وفقهاءها ومحدثيها وحركييها يخدمون المخططات اليهودية والنصرانية والطاغوتية والاستخبارية سواء شعروا بذلك أم لا، والذين لايزالون يطعنون في علماء

---

(١) وفيات الأعيان ج٣/ ٤٩٧.

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ٩٤.

(٣) انظر البداية والنهاية ج١٣/ ٣٩.

الأمة بفعلهم هذا يكونوا قد ابتعدوا عن منهج أهل السنة والجماعة الذي يقول: (وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر لايذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل)[1].

ولقد رأيت أقواماً يستهزئون بالعلماء والفقهاء والمحدثين والدعاة، بل بعضهم كفَّر بعض قادات الحركات الإسلامية بدون بينة بل بجهل وعناد واستخفاف، وبعضهم يتلذذ بغيبة العلماء والطعن فيهم، وينشر ذلك على المنابر وفي الصحف ولو أتيحت له الإذاعة لهذا الغرض لطار فرحاً وما يدري المسكين أن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، وما يدري هذا المتعالم أن الاعتبار في الحكم على الأشخاص بكثرة الفضائل قال ابن القيم رحمه الله: (ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدمُ صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلّة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين)[2].

إن تاريخ الأمة الإسلامية المجيد يبين لنا أهمية احترام العلماء والدعاة وتقديمهم في إعزاز هذا الدين. فعلى العاملين لإعادة ماضينا المجيد وعزنا التليد أن يعملوا على إعادة دور العلماء والفقهاء، وإلزام الناس باحترامهم، ومنع العملاء المندسين في صفوفنا للطعن في علماءنا بالأقوال المزخرفة والأساليب الملتوية للضحك على شبابنا حتى لايفلحوا في دنيا ولا في آخرة.

ثانياً: ومن الملامح الواضحة في شخصية صلاح الدين شغفه بالجهاد قال

---

(١) شرح الطحاوية ج٢/ ٧٤٠.

(٢) أعلام الموقعين ج٣/ ٢٨٣.

القاضي ابن شداد: (وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد وفي الإرفاد لصدق وبرّ في يمينه. ولقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ولقد هجر في محبته " الجهاد " أهله وولده ووطنه وسكنه، وقنع بالدين بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وقد سرنا مع السلطان على الساحل نطلب عكا وكان الزمان شتاء عظيماً، والبحر هائجاً وموجه كالجبال، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندي، واستخففت رأي من يركب البحر، بينما أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال في نفسه إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندي وحكيت له ما خطر لي، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها اللهم إنك تعلم إنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم ويقول: - إذا ركبت يزول عني الألم حتى أنزل)[1].

---

(١) الروضتين ج٢/ ٢٢١ - ٢٢٢.

إن في زماننا هذا اندفاع عظيم نحو ساحات الوغى والشاهد على ذلك ما حدث في أفغانستان، ومانسمعه من تضحيات عظيمة في الأرض المحتلة إلا أن في بعض بلاد المسلمين من أشرف على الحركات الجهادية أخوة لنا تنقصهم خبرات كثيرة من فهم لسنن الله في تغيير الشعوب والمجتمعات، والأهم من ذلك معرفتهم في دين الله ضعيفة، وخصوصاً في السياسة الشرعية وأحكام الدماء والأعراض والأنفس، والتدرج في تربية الشعوب حتى تتهيأ لتصبح مجاهدة وشرعوا في إصدار الفتاوى والأحكام التي قَرَؤُوها من كتب تخدم غرضهم واهتموا بتربية الشباب عليها، وأقحموا أتباعهم في معارك خاسرة ضد حكوماتهم في صراع عنيف ينتهي بقتل بعضهم وسجن آخرين منهم ومن غيرهم، وتشريد العوائل الأخيار من المسلمين، وتسببوا في تعطيل مشاريع دعوية تربوية وفعلهم هذا فيه تجاوز من عدة أمور.

أولاً: - إن الجهاد حق الأمة وليس حق أفراد أو جماعات وتقرره الأمة بواسطة أهل الحل والعقد من الفقهاء والعلماء الذين تختارهم، ويسبق هذا مجهود تربوي وعلمي وفقهي في أوساط الشعب لتعريفهم بحقيقة دينهم، واستفاضة البيان. ويكون ذلك تحت إشراف العلماء والفقهاء، فإن كان الشعب الذي نتكلم عنه لايوجد فيه علماء وفقهاء فلابد من دفع مجموعة من أبنائه للتفرغ لطلب العلم وأخذه من أهله، ممن شهدت لهم الأمة أنهم أهلاً لذلك حتى يتهيؤوا للإشراف على العمل الجليل، حتى تجد الأمة من ترجع إليه في مشاكلها العظيمة، ويأخذ بيدها نحو تحكيم شرع الله بسنة الله في التدرج، وخصوصاً في عصرنا هذا الذي تموج فيه الفتن. فالأمور العظيمة كالجهاد في سبيل الله تعالى مردها إلى أهل العلم والبصيرة النافذة قال تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه

منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾[1] لا إلى من قضى عمره في الهندسة المعمارية أو الصناعية أو الهندسية، أو قضى عمره في دراسات الجراحات الطبية أو غيرها من الفنون، ثم قرأ بعض الكتب فحفظها وفهمها على حسب فهمه المحدود وشن حرباً على العلماء والفقهاء والحركات الإسلامية صاحبة الفهم الشامل، التي أشرف على تأسيسها وحركتها علماء ودعاة وفقهاء شهدت لهم الأمة بعلمهم وإخلاصهم وصدقهم، ولا الرجوع إلى من عاش في متابعة الجرائد والإذاعات وتتبع سقطات الدعاة وتتلمذ على كتب حرب العصابات مثل ماوتسي تنج في الصين وجيفارا في أمريكا اللاتينية، والبعد عن قيادتنا العظيمة أمثال نور الدين وصلاح الدين وقبل هؤلاء سيد المرسلين وأصحابه الميامين الطيبين وأراد أن يدفع بشباب الأمة نحو أهدافه التي رسمها.

قال الشيخ العلامة ابن سعدي – رحمه الله – في تفسيره للآية المذكورة (هذا تأديب من الله لعباده على فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم اذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر بل يردونه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإلى أولي الأمر منهم أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا ما فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته أكبر من مصلحته لم يذيعوه ولهذا قال (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أي: يستخبرون بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

وفي هذا دليل لقاعدة مهمة وهي: إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يوكل إلى من هو أهل لذلك، ويُجْعَلَ إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب للصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة فَيُقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه)[1].

إن قضايا الجهاد والسياسة الشرعية ما كان يفتي فيها إلا العلماء الراسخون في المعرفة والعلم والفقه والذين أصبحت لهم دراية بمقاصد الشريعة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والأدلة التفصيلية ولا يمكن لشباب في مقتبل العمر ضاعت أوقاتهم في القيل والقال، ولم يجلسوا في حلقات العلم ويأخذوه عن شيوخه أن يفتوا في أمور الجهاد التي تزهق فيها الأرواح، وتنفق فيها الأموال ويعتدي فيها على الأعراض.

بعد الدرس العميق لسيرة المصلح الجهادي صلاح الدين يتبين لنا أن الذين كانوا يفتون في زمانه هم العلماء الذين فهموا الشريعة ومقاصدها، واستوعبوا الموازنة بين المصالح والمفاسد، وواقعهم الذي عاشوا فيه، وتفننوا في معرفة المصالح والمفاسد.

وأنصح إخواني أبناء المسلمين أن لاينغرُّوا بمن أوتي جدلاً باللسان ولم يُشهد له بأنه من أهل الفتوى، وأن لا يأخذ الإنسان دينه إلا ممن شهدت لهم الأمة بالعلم وعرفوا بالحرص عليه وتعلموا على أيدي العلماء، وصبروا على أخذ العلم، لأن الدين وفهمه عظمك ولحمك ودمك فانظر عمن تأخذ دينك فلا تأخذه

---

(١) تفسير السعدي ج٢/ ٥٤، ٥٥.

من النكرات الذين آخذوا بعض ثقافاتهم من الصحف والأوراق والكتب واعتزوا بعقولهم وتفاخروا بنفوسهم.

إن العلم الشرعي علم يؤخذ بالتلقي فلا يجدي الأخذ من الكتب فقط، بل الاقتصار في التلقي على الأخذ من الكتب بلية من البلايا، وكذا اجتماع الشباب والطلبة على التدارس دون أخذ عن شيخ عالم عامل.

يقول الإمام الشافعي - رحمه الله - (من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام)[1].

وكان بعض السلف يقولون (من أعظم البلية تشيخ الصحيفة) [2].

إن علماء الأمة على مر العصور والأزمان لايرفعون فوق رؤوسهم الرايات ولا يدعون إلى شعارات، ولايطالبون الناس بالانتماء إليهم إنما يطالبون الناس بالانتماء إلى سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وإياك أخي أن تكون مثل الخوارج الذين تركوا أهل العلم والفضل من الصحابة وتابعوا الأعراب الذين لا يُجيدون إلا الخطابات الحماسية وتأجيج العاطفة، فاحرص على الموثوق في دينه وعلمه: (فإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم) [3].

إن جيل صلاح الدين قادة وجنوداً جماعات وأفراداً، فهموا معنى قيمة العلم وممن يؤخذ، وأعطوا الفتوى لأصحابها، وتسلم العلماء الربانيون سياسة الأمة فقطعوا بها المراحل، وتدافع الجميع نحو مرضاة الله وزراء وقواد وسلاطين وعوام، فأصبح شغفهم بالعلم والعلماء واضحاً معلوماً، وحرصهم على الجهاد وتفجير طاقاته شيئاً ملموساً من سيرتهم. إن الجهاد حق الأمة وليس حق

---

(١) ابن جماعة تذكرة السامع ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق ص ٨٧.

(٣) مقدمة صحيح مسلم ج١/ ١٤.

الأفراد وتقرره الأمة بالالتفاف حول أهل الحل والعقد الذين تقدمهم الأمة وليس مجموعة من الأفراد يطعنون في من يخالفهم.

ثالثاً: – من السمات الشخصية في صلاح الدين حرصه على العدل.
وكان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم، والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاءً لهم وحتى تبقى طاعتهم.

رابعاً: – زهده في الدنيا ولذلك لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم، وحتى إلى أعدائه، وكان متقللاً في ملبسه، ومأكله، ومركبه، وكان لايلبس إلا القطن والكتان والصوف.

خامساً: – كان مهتماً بالعلوم في اللغة والأدب وأيام الناس وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام.

سادساً: – كان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة يقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، وكان يتجشم القيام مع ضعفه.

سابعاً: – كان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع القرآن الكريم والحديث الشريف.

ثامناً: – كان ضحوك الوجه كثير البشر، لايتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات[1].

---

(١) أنظر ابن كثير البداية والنهاية ج١٢ / ٦، ٧.

فرحمة الله على أمثاله وأعلى ذكره في الصالحين.

د - من أروع المراثي في صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

قال العماد الأصبهاني رحمه الله: (دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في زيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال ورثاه الشعراء) إلى أن قال العماد الأصبهاني مرثيته المشهورة:

شَمَلُ الهدى والملكِ عمّ شتاتــهُ
والدهرُ ساء وأقلعت حسناتُـهُ
بالله أين الناصر الملك الـذي
لله خالصة صَفَت نياتُــــهُ
أين الذي مذ لم يذل مخشــيةً
مرجوةً رَهَباته وهِبـــاتُهُ
أين الذي كانت له طاعتُنـــا
مبذولةً ولــــربِّه طاعاتُهُ
أين الذي مازال سلطاناً لنـــا
يُرجَــى نَداهُ وتُتَّقى سَطَواتُهُ
أين الذي شَرُفَ الزمان بفضلـه
وسَمَتْ على الفضلاء تشريفاتُهُ
لاتحسبون مات شخصاً واحـداً
قد عمّ كـــلّ العالمين مماتُهُ

مَلِكٌ عن الإسلام كـــــان محامياً

أبداً لمـــــاذا أسلمته حُماتُهُ

قد أظلمت مذ غـــــاب عنّا دُورُه

لمّا خلت مــــن بدره داراتُه

دُفِنَ السماح فليس تنشر بعدمــــا

أوْدَى إلى يــوم النشور رُفاته

الدين بعد أبي المظفر يوســـف

محفوفة بـــــوروده حافاتُهُ

من لليتامى والأرامل راحـــــمُ

متعطفٌ مفضـوضة صدقاتُهُ

لو كان في عصر النبي لأنزلـــت

في ذكره من ذكــــره آياته

بكت الصوارم والصواهل إذ خلت

من سلِّها وركوبهـــا عَزَماتُهُ

ياوحشة الإسلام حيـــــن تمكّنت

من كل قلب مؤمــن روعاته

يا داعياً للدين حين تمكنــــــت

منه الذئــاب وأسلمتـه رُعاتُهُ

ما كان ضرك لو أقمـــت مراعياً

ديناً تولـــى مذ رحلت وُلاتُهُ

فارقت مُلكاً غير باقٍ مُتعبـــــاً

ووصلـــت مُلكاً باقياً راحاتُهُ[1]

---

(١) النجوم الزاهرة ج٦/ ٦٠، ٦١.

من للثغور وقد عداها حفظـــــه

من للجهاد ولم تَعُد عاداتـــــــه

ما كان أسرع عصره لما انقضى

فكأنما سنواتُهُ ساعاتـــــــــه

فعلى صلاح الدين يوسف دائـماً

رضوان رب العالمين بل صلواته(1)

هـ - من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي ساعة موت السلطان صـلاح الديـن كتـب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

﴿لقد كـان لكم فـي رسـول اللـه أسـوة حسـنة﴾ ﴿إن زلزلـة السـاعة شـيء عظيم﴾.

كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عـزاءه وجَـبَر مُصابَـه، وجعل فيه الخَلَفَ للملك المرحوم، وقد زلـزل المسلمون زلـزالاً عظيمـاً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلـوب الحنـاجر، وقـد قبّلـت أبـاك ومخدمـي وَدَاعاً لا تلاقي بعده، وقد قبّلت وجهه عنّي وعنـك، وأسلمته إلـى اللـه مغلـوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن اللـه، ولاحول ولا قـوة إلا باللـه، وبالبـاب من الجنود المجنَّدة، والأسلحة المُغمَدة، مـالا يدفـع البـلاء، ولايـرد القضـاء، وتدمـع العيـن ويخشـع القلـب، ولا نقـول إلا مـا يُرضـي الـربّ،

(1) صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس ص ١٠٢.

وإنّا عليك يا يوسف لمحزونون وأمّا الوصايا فما يُحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المُصاب عنها، وأمّا لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما وعدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام) [1].

فرحمة الله على صلاح الدين ومن قبله من السابقين ومن بعده من المسلمين الذين أخذوا بسنن التمكين.

قد يتساءل القارئ لماذا هذا الإطناب في سيرة صلاح الدين ونور الدين وجوابي على ذلك أن الدولة العبيدية لها أسباب مباشرة في السقوط وأسباب غير مباشرة وإن في رأيي أن من أهم الأسباب في زوال الدولة العبيدية: - جهود القائدين العظيمين نور الدين محمود وصلاح الدين، ولذلك أطنبت في سيرتهم العطرة وإيضاح أهم أسباب النصر التي التزموا بها وأخذوا بها، وإظهار الجهود العلمية والتربوية والفقهية التي قام بها العلماء في عصرهم وعصر من سبقهم، ليصل القارئ الكريم أن صلاح الدين ونور الدين لايأتيان فجأة دون تمهيدات وإرهاصات وجهود تبذل من قبل أفراد الأمة وجماعاتها وعلمائها ودعاتها، وليعلم القارئ أن التغيير لايحدث في الأمة إلا إذا سبقه حرص جماعي على الأخذ به، وعلى أهمية معرفة أسباب النصر وعوامل الهزيمة وأهمية مزج الإخلاص في النية بالصواب في التفكير والعمل لاغنى لأحدهما عن الآخر.

وبهذا أكون قد انتهيت من كتابة الدولة العبيدية في الشمال الإفريقي.

فإن أصبت فمن الله وحده وإن أخطأت فمن نفسي وتقصيري.

أسأل الله أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن تنتفع به أجيال المسلمين.

---

(١) النجوم الزاهرة (٥٣،٥٢/٦).

نتائج البحث

١- عندما تكون الأمة قوية يعمدُ أعداؤها إلى لباس ثوب الدين ليسهل لهم تفتيتها ونخرها من الداخل وخصوصاً اليهود ويتفنون في رفع الشعارات المزيفة والكاذبة لخداع عوام المسلمين وهذا مافعله الزنديق اليهودي الحاقد عبدالله بن سبأ وهو أول من بذر بذرة الرافضة في الأمة باسم التشيع ومناصرة أهل بيت النبوة.

٢- إن أهل البيت رضوان الله عليهم وخصوصاً علماءهم ابتداءً من الإمام علي رضي الله عنهم يعتبرون من علماء أهل السنة والجماعة وحاربوا بكل ما يملكون أهل البدع والابتداع في الأمة.

٣- إن زيد بن علي خذله أهل الرفض لكونه امتنع عن سب الشيخين رضي الله عنهم وهذا يدل على حقد الروافض للصحابة الكرام.

٤- إن التشيع كثرت فرقه وانتشرت في بقاع الأرض وأصبحت له دول تحمي أتباعها ومن المعلوم أن الأفكار لاتموت في الغالب وإنما يتغير أشكالها ولباسها وفق ما يحتاجه أهل كلّ مكان وزمان.

ولذلك فإن بيان فرقهم التي لازالت منتشرة وغيرت أسماءها جهاد يحبه الله ورسوله.

٥- إن من أخطر فرق الشيعة في الوقت الحاضر النصيرية التي تحالفت في الماضي مع النصارى لاحتلال ديار الشام وكانوا يحزنون إذا انتصر المسلمون ويفرحون إذا هزم المسلمون ولازالت تحالفاتهم مع النصارى واليهود مستمرة ولهم دولة في سوريا أذاقوا أهل السنة فيها الويلات من قتل وسجن وتعذيب وتشريد.

٦- ومن أخطر الفرق المعاصرة الاثنا عشرية التي أقامت دولة في إيران وتتدرج في نشر أفكارها على مستوى العالم أجمع ولانستغرب إذا استمر أهل السنة في نومهم العميق

أن يضموا الإمارات العربية وقطر والبحرين وجزءاً من العراق والسعودية ويرون هذا التوسع جهاداً وديناً وقربة لله.

٧- إن الإسماعيلية أتقنت تنظيمها ووفرت له كافة الأسباب -التي تنقل التنظيم إلى حكم دولة- من أسباب عسكرية، وأمور مادية، واختيار كفاءات عالية لها المقدرة على التخطيط والتنفيذ.

٨- إن القيادة الإسماعيلية اختارت مكاناً مليئاً بالظلم وفيه صراع عنيف بين القبائل والدولة العباسية، وأرسلت دعاتها على مراحل حتى جاء دور الماكر الخادع أبي عبدالله الشيعي الذي تدل كتب التاريخ أنه رجل دولة له مقدرات عسكرية وفكرية وظّفها في تحقيق أهدافه، وعندما استطاع أن يعرف مواطن القوة في المجتمع المغربي ومواطن الضعف شرع في الأخذ بأسباب القوة وإنهاك دولة الأغالبة وزيادة ضعفها مما ساعده على إسقاطها عام ٢٩٧هـ.

٩- كان الناس في زمن مجيء أبي عبدالله الشيعي مهيئين للتغيير ويبحثون عن بديل ويسعون لإزالة الظلم وتولدت نفرة عظيمة بين الأمراء والشعب في الشمال الإفريقي.

١٠- إن عبيدالله المهدي عندما تقلد أمور الحكم عمل على تصفية أتباعه المخلصين الذين أسسوا دولته، وهذا شيء ملاحظ في تاريخ البشرية، وهو ما يسمى بأن الثورة تأكل أبناءها، وأقول: إن هذا الأمر يدخل في سنة الله الجارية: - من أعان ظالماً سلطه الله عليه، وما انتقام الرئيس العراقي من وزيره وعامله وصهره عنا ببعيد بل جل الثورات تتعرض لهذه التصفيات.

١١- إن عبيدالله استفاد من معتقد المسلمين في المهدي المنتظر وزين الأمر وزخرفه حتى أقنع كثيراً من الناس بأنه هو المقصود.

١٢- إن علماء أهل السنة دائماً وأبداً عندما تشتد الظلمة ويغيب الإسلام يقومون بدورهم الريادي في إحياء الأمة ولو كلفهم ذلك نفوسهم وأموالهم وأهاليهم.

١٣- إن تربية الأمة على معتقد أهل السنة والجماعة هو السياج العقدي والفكري والنفسي الذي يحميها من الدعوات الضالة المضلة.

١٤- إن أهالي طرابلس قاوموا المد الرافضي والمعتقد الباطني، ودخلوا في قتال عنيف مع بني عبيد وفي نهاية المطاف انقاد أهل طرابلس بالقوة والسلاح لدولة العبيديين.

١٥- لقد فعل العبيديون في أهالي برقة ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤوس، وثار أهل برقة ضدهم ولكنهم أخمدوا بالتنكيل والتعذيب والقتل وسبي النساء.

١٦- استطاع أبو يزيد الخارجي أن يهز كيان الدولة العبيدية وكاد أن يقضي عليها الا أنه لم يحقق ذلك، لأن عقليته لم تكن عقلية رجل دولة ولم تكن له خطة واضحة الأهداف كما أنه غدر بحلفائه مما أفقد ثقة الناس فيه.

١٧- إن علماء أهل السنة اجتهدوا في مناصرتهم لأبي يزيد الخارجي إذ رأوا أنه أخف الضررين والدرس العميق الذي نخرج به هو شدة الحذر في مثل هذه التحالفات، وتقدير المصالح والمفاسد وخصوصاً عند أهل البدع الاعتقادية والأحزاب العلمانية، فالمسلم كيِّسٌ فَطِنٌ ولايلدغ من جحر مرتين.

١٨- من أسباب نجاح ثورة أبي يزيد أن القائم بأمر الله الخليفة العبيدي سبّ الأنبياء وأظهر كفره، فاستغل أبو يزيد ذلك وألب إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان عليه.

١٩- أظهر الخليفة المنصور العبيدي الإسلام وقدم الفقهاء والعلماء ورفع الظلم عنهم حتى سكنت البلاد وقضى على الخارجين عليه.

٢٠- إن أهالي الشمال الإفريقي طويلو النفس لايرضون بغير منهج أهل السنة ولهم استعداد أن يقدموا الغالي والرخيص في سبيل هذه العقيدة الصحيحة، لذلك اضطر خلفاء العبيديين أن يفكروا في الانتقال إلى مصر والتخلص من الثورات والاضطرابات.

٢١- أصبحت الدولة العبيدية راعية الفكر الباطنى فى العالم الإسلامي وتمده بالمال والسلاح

وبكل ما يحتاجه، لتقويته ضد أهل السنة فتم التعاون بين القرامطـة والعبيديين إلا أنهم اختصموا واختلفوا على الدنيا.

٢٢- اتخذت الدولة العبيدية أساليب متنوعة في القضاء على عقيدة أهل السنة وكلها لم تحقق هدفها.

٢٣- قاوم علماء أهل السنة المد العبيدي الرافضـي بكافـة الأسـاليب المتاحـة لهم من حجـة وتعليم ودعوة وحمل سلاح ضد الطغاة الظالمين وتحملوا القتل والسجن والتعذيب.

٢٤- استهدف علماء أهل السـنة فـي دعوتهم الأمـراء الصنهاجيين ونجحوا فـي إرشادهم وتعليمهم وأخص بالذكر الفقيه أبا الحسن الزجّال.

٢٥- كان الإهتمام بالمعز بن باديس مكسباً عظيماً لأهل السـنة، وكـان المعز بـن بـاديس حكيماً في تدرجه للانفصال عن الدولة العبيدية الباطنيـة إذ شـجع العلمـاء والفقهـاء من أهل السنة في دعوتهم، وضايق الروافض بل استدرجهم لمعارك طاحنة للقضاء عليهم بالسيف.

٢٦- إن الدولة الصنهاجية البربرية الزيرية تحولت في زمـن المعـز إلـى دولـة سـنية وهـذه بداية ضعف الدولة العبيدية بل من أسباب سقوطها.

٢٧- إن إلغاء المذاهب السنية وإلزام الناس على الإلتزام بمذهب واحـد ضيـق قـاعدة الدفـاع في الشمال الإفريقي، وكان الأولى للمعز أن يتبنى التيارات السنية كافة كمـا فعـل نـور الدين محمود مع كونه حنفي، إلا أنه قدر وقدم بقية المذاهب السنية، وكما فعـل صـلاح الدين في كونه شافعياً.

٢٨- لقد كانت سنة الله واضحة في آجال الملوك والحكام وكذلك قـوة الأفكـار التـي تحميهـا الدول، وكم من تغيير حدث من أحفاد وأبناء من هم أعداء لمنهج أهل السنة.

٢٩- مكرت الدولة العبيدية بـالمعز بـن بـاديس بإرسـالها القبـائل العربيـة للشـمال الإفريقـي، وكان من أسباب انهزام المعز الصراع العنيف بين صنهاجـة وكتامـة وزناتـه وتركيـب

الجيش وارتكازه على العبيد الذين لم يتحصلوا على قسط وافر من التربية الإيمانية.

٣٠- يعتبر عصر تميم بن المعز أفضل من والده، إذ استطاع أن يضم المدن التي انفصلت إلى دولته وأن يجند القبائل العربية في جيشه وأن يهزم بني عمه أصحاب الدولة الحمادية واستمر على نهج أبيه والدعوة إليه.

٣١- يعتبر عصر يحيى بن تميم من أقوى العصور الزيرية خصوصاً في مجال البحر، وشن الحروب على النصارى، وإرسال الحملات الجهادية في حوض البحر المتوسط، كما أن التجارة ازدهرت ازدهاراً عظيماً انعكس على الرعايا، واستطاع أن يسوس العرب بسياسة حكيمة.

٣٢- في عصر الأمير علي بن يحيى بدأت الأطماع النصرانية تظهر للعيان وتحركت أساطيل النصارى من صقلية للمناوشات في البحر المتوسط.

- سقطت المهدية عاصمة الزيريين في عام ٥٤٣هـ في أيدي " رجال النصارى " حكام صقلية وكذلك طرابلس ومدن الساحل في الشمال الإفريقي.
- استطاع الموحدون أن يطهروا الشمال الإفريقي من النصارى وأن يحافظوا على وحدة البلاد السياسية من المغرب الأقصى إلى الحدود المصرية.
- كان لسقوط الدولة الزيرية أسباب كثيرة من أهمها الصراع الداخلي بين صنهاجة وزناتة وكتامة، وتوسع الصراع بدخول العرب حلبة الصراع مما أضعف الدولة في نواحيها العسكرية والتجارية والسياسية وغيرها، وجعل العلماء والفقهاء يهاجرون إلى المشرق أو الأندلس أو المغرب الأقصى.
- حكمت الدولة الزيرية ١٨٠ سنة هجرية ثم انتهت وأصبحت كالأمس الغابر ﴿لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [يونس: ٤٩] وهذا يفيدنا رة واتعاظاً.

كان العبيديون نجحوا في إضعاف المعز بن باديس ودولته فإن الله سلط عليهم

إخوان المعز في العقيدة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي للقضاء على ملك العبيديين.

٣٨- تكاثفت جهود الأمة لمحاربة المد الباطني الإسماعيلي، وظهر ذلك جلياً فيما قام به السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند، والسلطان ألب أرسلان السلجوقي في بلاد الشام، من حرب العبيديين وكان الغزنويون والسلاجقة سنيون في معتقدهم.

٣٩- برز في الدولة السلجوقية الوزير نظام الملك " الحسن بن علي " وكان ذا صلاح وتقوى وهمة في إحياء السنة وإماتة البدع، فوضع خطة طويلة المدى متعددة المراحل ترمي لإخراج أجيال متفقهة في الدين مستعدة للتضحية في سبيله، فأسس المدارس في ديار المسلمين في نيسابور والعراق والشام وامتدت إلى مصر، وشجع العلماء والفقهاء على التعليم والدعوة وتفقيه الناس، ووفر للعلماء والطلاب كافة سبل الراحة، وكان من أشهر العلماء في هذه المرحلة العصيبة أبو المعالي الجويني، والإمام الغزالي وقبلهم الماوردي. وأبو إسحاق الشيرازي فعملوا جادين في محاربة الرفض وإحياء السنن وهؤلاء زعماء المدرسة الشافعية السنية التي كان لها دور ملموس في فترة نهوض الأمة من كبوتها وتهيئتها لفتوحات نور الدين محمود، وصلاح الدين.

٤١- ظهور علماء المدرسة الحنبلية السنية أمثال " أبو الوفاء بن عقيل وأبو الفرج الجوزي" وتفرغهم لتعليم الناس وتربيتهم وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور ملموس في هذه الجهود وخصوصاً بعد أن تولى أمر هذه المدرسة الداعية الرباني والعالم الجليل عبدالقادر الجيلاني الذي تربى على يديه كثير من علماء الشام في بغداد.

٤٢- بعد أن بذلت جهود تربوية عظيمة من أشهر روادها " الإمام الغزالي" وعبدالقادر الجيلاني وبذلت جهود علمية لايستهان بها من أشهرها ما قامت به المدرسة الحنبلية الشافعية تولد جيل واضحة أهدافه، عالية همه، وظهر في هذا الجيل الجديد قادة ربانيون من أمثال عماد الدين زنكي الذي بدأ في انتزاع أراضي المسلمين من

النصارى الحاقدين وحلفائهم الباطنية الملاعين.

٤٣- كان عصر نور الدين زمن تغيير للأمة وكانت معالم وملامح التمكين ظاهرة من عدل شامل، وحب للمصلحة العليا وتفانٍ في أداء الواجب وتكامل بين أبناء الأمة وانصهروا جميعاً في تحقيق الأهداف العليا.

٤٤- رأت الدولة الزنكية أن لاقوة للأمة إلا باتحاد العراق مع الشام فبدأت الدولة الفتية في توحيد أقطارها الإسلامية، ورأت بمنظورها البعيد أن لا عزة للأمة ولا قضاء على النصارى إلا بالقضاء على دولة الرافضة العبيدية، فأعدوا للأمر عدته، واستطاع نور الدين أن يسقط الدولة العبيدية، ويوحد جبهة القتال الشامية المصرية عام ٥٦٤هـ، وكان ذلك على يد أحد أعوانه المخلصين صلاح الدين الأيوبي.

ويظهر لقارئ التاريخ أن الأمة لاتستطيع أن ترد هجمات النصارى إلا إذا اتحد الشام مع مصر ويكون ما خلفها من ديار المسلمين ردءاً لهما.

وأما دور الأمة الهجومي لاستمرار عجلة الجهاد والتوغل في أوربا لايكون لها ذلك إلا إذا انضم الشمال الإفريقي مع بلاد الشام والديار المصرية.

٤٥- أجادت الدولة الزنكية في إقامة شبكات أمنية على مستوى أملاكها تتتبع كل التنظيمات البدعية التي تعمل على إسقاط الدولة السنية الزنكية الفتية، فكانت الدولة الزنكية تهتم بتتبع أقليات النصارى في ديارها، وخنق أتباع العبيديين وجعلهم تحت أعين الدولة.

ولذلك فإن الحركات الإسلامية السنية التي تسعى للوصول للحكم من أجل تحكيم شرع الله عليها أن تهتم بمكاتبها الأمنية وتطورها بما يليق مع مستوى المرحلة التي تمر بها حتى تستطيع أن تحجم دور الجيوب الداخلية في الأمة (تنظيمات بدعية أو علمانية أو نصرانية أو يهودية) وإتقان هذا الجانب من أهم أسباب التمكين.

٤٦- إن الدولة النورية الزنكية ما كانت تسند أمورها القيادية إلا لجنودها وقادتها المخلصين لفكرتها ولذلك بعد ما مات نور الدين محمود التقط الراية صلاح الدين واستمر في

تحقيق الأهداف المرسومة.

إن من الأخطاء القاتلة التي تمر بها الأمة أحياناً أن تتعلق بالأشخاص فإن ماتوا ضعفت وإن انحرفوا انحرفت، ولذلك يجب على الدعاة أن يجعلوا الأمة تتعلق بالمنهج حتى تستطيع أن تستمر في أداء وظيفتها الرسالية.

٤٧- لا بد للأمة التي تسعى لإزالة الدول الكفرية والأحكام الجاهلية أن يمتزج فيها الجانب العلمي التربوي مع الاستعداد العسكري الجهادي، وأن تكون القيادة العليا لأصحاب العلم الربانيين. ومن ظن أن الأمة بالقوة العسكرية وحدها ترجع مجدها فقد أخطأ السبيل وما أفغانستان عنا ببعيد، ومن ظن ؟ أن الجانب العاطفي الجياش وحده يقوي الأمة فقد خالفه الصواب وما ديار الجزائر عنا ببعيد، ومن ظن أن الجانب العلمي وحده أو السياسي وحده هو الحل العلمي فقد جانبه الصواب، وإنما الحل في الأخذ بالإسلام جملة، فالإعداد لابد أن يشمل كافة المجالات التي يتناولها الإسلام من دولة ووطن أو حكومة وأمة، أو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، أو ثقافة أو قانون، أو علم وقضاء أو مادة وثروة أو كسب وغنى، أو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

وهذا الذي اهتم به جيل التمكين في زمن نور الدين محمود وصلاح الدين.

٤٨- إن صلاح الدين الأيوبي تدرج في القضاء على الدولة العبيدية ورضي بأن يتولى وزارة التفويض وبدأ في تقليص الوجود العبيدي وإظهار التوجه السني، ولم يستعجل النتائج، ولابد من مراعاة سنة التدرج في تغيير الشعوب وإزالة الدول، كما أنه لابد من الاهتمام بالتخصص في أمور الدولة ومن التفنن في توزيع الأدوار حتى يتكامل العاملون لتحقيق أهدافهم.

٤- إن صلاح الدين أمضى سلاح العفو عند المقدرة مع خصومه، فكان له أثر بالغ في كسب النفوس ومداواة الأمراض وتوحيد الصفوف والقضاء على الفتن الداخلية، فالعفو

عند المقدرة عندما يكون في محله يقوي الدول ويجذب القلوب ويقضي على الخصوم.

٥٠- عندما تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الداخلية تحرك بجيوشه الجرارة لتطهير الشام من الصليبيين، وكان تحركه الميمون وفق خطة عسكرية محكمة، بدأ في انتزاع الحصون والمدن القريبة من مصر، واستدرج النصارى إلى مواقع اختارتها أركان حرب صلاح الدين ألا وهو " حطين " ووجه ضربته المباركة في حطين التي كانت مفتاح القدس.

٥١- إن أخلاق القادة الرفيعة تظهر في الفتوحات العظيمة، ولقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة في الأخلاق والعفة والكرم والصفح في فتحه للقدس، حتى إن ملوك النصارى ومؤرخوهم تأثروا بهذه الأفعال الجميلة والأيادي الجزيلة والفضل ما شهدت به الأعداء.

٥٢- إن القيادة الفكرية والعلمية لم تكن في يد صلاح الدين وإنما كانت مرتكزة عند العلماء والفقهاء، وبرز من أعوان صلاح الدين القاضي الفاضل الذي أخذ بيد صلاح الدين نحو تطبيق شرع الله، فعندما تكون القيادة الفعلية في الأمة للعلماء الربانيين والقادة العسكريين الذين ينقادون لأحكام الله يكون النصر حليفهم ويمكّن الله لهم ماداموا على نهجه سائرين.

٥٣- إن الأمة تتفاعل مع قيادتها العملية التي تنزل الأفكار في دنيا الناس وتعيش بها وتلتف الأمة حولهم وتقدم لقادتها كل ما تملك، أما إذا كان القادة أصحاب كلام لا فعال وعقيدتهم ميتة لاتحيي قلباً، ولا تدفع شخصاً، وجلسوا للتنظير والقيل والقال، فإن الأمة تتمزق وتنشطر وتتفرق، ويعم الشتات، وهذا ملاحظ من سيرة نور الدين محمود الذي أقام الإسلام على نفسه، ونزل بنفسه في ساحات الوغى، وكذلك في سيرة صلاح الدين وتلاميذه.

٥٤- مهما استطال الظلم وامتد وتوسع فلابد من نهاية له سواء تمثل في فرد أو في دولة

وهذه النهاية خاضعة لتقدير الله وفق سنته وقانونه في استدراج الظالمين والانتقام منهم وجعلهم عبرة لغيرهم فأين حكام العبيديين وأين ملكهم ودولتهم.

٥٥- إن الجهاد عندما تقوم به الأمة كلها بقيادة أهل الحل والعقد يعطي أكله بعد حين، وعندما يتصدى لقيادة الجهاد جهال وأنصاف علماء وشباب متحمسون تكون النتائج وخيمة.

٥٦- إني أعتبر ماقام به صلاح الدين ونور الدين من أعمال مجيدة ثمرة لجهود علماء وفقهاء ومربين بذلوا جهوداً عظيمة وأخرجت هذا الجيل الذي قضى على دولة العبيديين وكسر شوكة النصارى في حطين، وطهر المسجد الأقصى من أسر الحاقدين.

٥٧- إن الاهتمام بصفات القادة الربانيين والعلماء العاملين يفيد الأمة في تربيتها الطويلة وإعدادها الجاد لعودة صولتها وجولتها في دنيا الوجود على منهج قويم وتوجيه سليم.

٥٨- إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة متواضعة وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيباً فسدَّ الخللا ... جلّ من لاعيب فيه وعلا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المحتويات